التفسير العلمي المعاصر

وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

الأستاذ الدكتور
سليمان بن صالح القرعاوي
أستاذ الدراسات الإسلامية
جامعة الملك فيصل بالأحساء

الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

الأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك فيصل بالأحساء

١٤٢٥هـ

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرعاوي، سليمان بن صالح
التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن
الكريم/ سليمان بن صالح القرعاوي – الرياض، ١٤٢٤هـ
٢٦٤ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك: ٣-٨-٩٤٩٥-٩٩٦٠
١- القرآن – التفسير العلمي ٢- القرآن والعلم أ. العنوان
ديوي ٢٢٧.٦٥ ١٤٢٤/٦٧٨٥

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٦٧٨٥
ردمك: ٣-٨-٩٤٩٥-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هـــاتف: ٢٤٩٥٨٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

[سورة فصلت آية: ٥٣]

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وعلى آله وأصحابه والتابعين أجمعين وبعد:

فعلمية التفسير من حيث اللغة والمنهج، تعني التفسير القائم على أساس صحيح من الحقائق النقلية والعقلية، ولهذا يكون التفسير غير علمي إذا قام على غير هذا الأساس فاستند إلى الإسرائيليات، أو إلى خيال المفسر وإغراقه في القول المجازي وتعطيل الحقائق.

وتأسيساً على ذلك لابد أن يكون تفسير القرآن تفسيراً علمياً، وذلك بأن يتأسس على الحقائق، ويلتزم بها ويلتزم بالمنهج العلمي في التفسير والتأويل. ولكن مصطلح التفسير العلمي تحدد مفهومه عند العلماء المحدثين فانتظم كل تفسير يتناول ما تضمنه القرآن من إشارات عن العلوم البحتة والعلوم التجريبية كالرياضيات والطب والفلك والفيزياء والتشريح.

يقول الشيخ عبدالمجيد الزنداني: «إذا كان التفسير العلمي هو الكشف عن معاني الآية في ضوء ما ثبتت صحته من نظريات العلوم الكونية، فإن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ»[1].

---

(١) المعجزة القرآنية للكتاب والسنة، بحوث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام أباد، باكستان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

ومعنى هذا أن أسرار القرآن تتوالى في الظهور مع ارتقاء البشر وتقدمهم، وصدق قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (١).

ويقول الدكتور زغلول النجار: في التفسير العلمي للآيات الكونية لا بد من الحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة كلما توفرت. ولكن لما كانت العلوم الكونية لم تصل بعد إلى الجواب النهائي في كل قضية من قضايا الكون ومكوناته وظواهره فلا نرى حرجاً من توظيف أفضل النظريات المتاحة، وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً لمحاولة فهم دلالة الآية القرآنية، لمن أصاب فيها أجران ولمن أخطأ أجر واحد (٢).

وقد بدأت بحثي بهذه المقدمة التي وضحت فيها الفرق بين علمية التفسير والتفسير العلمي بالمفهوم الحديث الذي صار به مصطلحاً وعلماً على نوع من التفسير القرآني يوظف فيه المفسر معطيات العلم الحديثة ونظرياته لفهم دلالة الآيات القرآنية ويتخذ من هذه المعارف والنظريات وسيلة للكشف عن المعنى والإعجاز القرآني.

ثم تناولت في المدخل مصادر التفسير في عصر النبوة والتفسير المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام وتناولت التفسير المأثور بالرأي، والتفسير

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٧.

(٢) المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

العلمي: نشأته وما وصل إليه في عصرنا الحاضر وتضمن الكتاب بعد ذلك ستة أبواب تناولت فيها الموضوعات والقضايا التي تتصل بالتفسير العلمي للقرآن الكريم قديماً وحديثاً.

وقد حرصت في دراستي أن أجمع بين ما يتصل بالقضايا الإنسانية والقضايا الكونية، كما حرصت على إبراز ظواهر الإعجاز الرباني في كل ما تناولته من موضوعات وقضايا.

ويقول الدكتور زغلول النجار: ما من أمر من الأمور تعرّض له الكتاب الخالد إلا وهو معجز حقاً، وما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان عاقل بشيء من الموضوعية والحيدة إلى هذا القرآن إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز، فالقرآن معجز في بيانه ونظمه، كما أنه معجز في عرضه لقضايا العقيدة، وأوامر العبادة، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، معجز في تشريعه، معجز في استعراضه التاريخي للعديد من أخبار الأمم... معجز في خطابه للنفس البشرية... معجز في إشاراته الطبيعة العديدة، وفي تنبؤاته المستقبلية التي تحققت بعد نزوله بفترات طويلة، ولا تزال تتحقق إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، معجز في إشاراته إلى العديد من أشياء الكون ومن أبرزها وصف مراحل الجنين في الإنسان، وفي استعراضه لكيفية بدء الخلق، وإفناء الكون، وإعادة خلق كل ذلك من جديد، معجز في استعراضه للعديد من أمور الغيب، معجز في كل كلمة من كلماته وكل حرف من حروفه، وكل آية من آياته وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «إن هذا القرآن لا تنتهي عجائبه ولا

يخلق على كثرة الرد»[١].

ولهذا كان بحثي: التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، محاولة للإسهام في التعرف على خصائص التفسير العلمي، وظواهر الإعجاز القرآني.

ولا شك أن لكل باحث منهجه، ولكل دارس طريقته، والضابط في كل ذلك صدق النية والبحث الجاد، وطلب العلم من مصادره الصحيحة وعلمائه الثقات وتحري الدقة والحذر في النقل والإجهاد.

وقد حاولت جهدي أن يكون علمي قائماً على ذلك كله طالباً من الله تعالى أن يجنبني الزلل، وأن يوفقني فأصيب فيما اجتهدت فيه، وفيما أخذت به من آراء فأفوز بالأجرين وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

******

(١) ينظر المرجع السابق ص ٨، ٩.

المدخل

ويتكون من:

أولاً: مصادر التفسير في عصر النبوة والصحابة والتابعين.

ثانياً: أنواع التفاسير ويشمل:

أ- التفسير المأثور.

ب- التفسير بالرأي.

ج- التفسير العلمي.

المدخل

نزل القرآن الكريم على رسول البشرية، وخاتم النبيين بلغة العرب، كما حدث مع الرسل السابقين، الذين أرسلهم الله تعالى بلغة قومهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١).

وكان النبي ﷺ يفهم ما أوحى الله إليه جملة وتفصيلاً بعد أن أخبره ربه بقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢).

ولقد كان طبيعياً أن يفهم المسلمون الأول قرآن ربهم في جملته، أي بالنسبة لظاهره وبعض أحكامه، أما تفصيله ومعرفة دقائقه، فهذا لم يكن ميسوراً لهم إلا بعد الرجوع إلى الرسول ﷺ، فيما يعن لهم أو يدق عليهم فهمه. ومما يؤكد هذا ما أخرجه أبو عبيدة في كتابه الفضائل عن أنس – رضي الله عنه – أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قرأ على المنبر قول الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٢) سورة القيامة: الآيات ١٧-١٩.

(٣) سورة عبس: الآية ٣١.

فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب..؟

ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف. وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما بُيِّنَ لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه وما لم تعرفوه فَكِلُوه إلى ربه [١].

وقال إبراهيم التيمى: سئل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – عن تفسير الفاكهة والأب. فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم وهذا منقطع [٢].

وروى أيضاً أن عمر كان على المنبر فقرأ قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [٣] ثم سأل عن معنى «التخوف»..؟

فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوف التنقص.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٢٣، وابن كثير ٤/ ٤٧٣، والطبري ٣٠/ ٥٩، وهذا الأثر من كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد وراجع مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق عدنان زرزور ص ٩٦.

(٢) ذكر هذا الأثر، بنفس الإسناد: الحافظ ابن كثير وقال فيه: وهذا منقطع بين إبراهيم التيمى والصديق – رضي الله عنه – راجع تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٣، وتفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٢٣، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٩٥-٩٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٧.

وروى الإمام البخاري بسنده أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ (١).

وبلغ من أمره أن أخذ عقالاً أبيض وعقالاً أسود، فلما كان بعض الليل نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بشأنه فَعَرَّضَ بقلة فهمه، وأفهمه المراد. وإذا كان الأمر كذلك فما هي مصادر التفسير في عصر النبوة..؟

******

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

أولاً مصادر التفسير في عصر النبوة

يكاد يكون اتفاقاً بين رجالات التفسير أن المصادر في هذا العصر لا تخرج عن المصادر الأربعة هي:

١- القرآن الكريم.

٢- النبي ﷺ .

٣- اجتهاد الصحابة وقوة استنباطهم.

٤- أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ويطيب لنا أن نتكلم بإيجاز عن كل مصدر من هذه المصادر.

المصدر الأول

تفسير القرآن بالقرآن

فنقول – وبالله التوفيق – كان لا بد لمن يتعرض – في هذا العصر للتفسير أن يستعرض كتاب الله تعالى، ويقابل الآيات بعضها بعضاً.

يفعل المفسر ذلك ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً[١]. وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً[٢]. ثم يحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص. فإن فعل ذلك يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله تعالى.

---

(١) في كثير من آيات القرآن جاء مجملاً فسره ما جاء مبيناً مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ الأنعام آية ١٠٣ فسرتها آية القيامة ٢٣ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾.

(٢) من ذلك في المطلق والمقيد أي الوضوء والتيمم فإن الأيدي مقيدة في الوضوء بالغاية في قوله: ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ المائدة ٦ ومطلقة في التيمم في قوله: ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ المائدة ٦.

المصدر الثاني

التفسير المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام

كان الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – يرجعون في كثير من الأمور إلى رسول الله ﷺ ليبين لهم ما خفي عليهم من الوحي – كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

والذي ينظر في كتب السنة، يجد أنها أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليه. ذكرت فيها الكثير من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ كما تشهد بذلك كتب الصحاح (٢).

ونرى أن الرسول ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن في مدة حياته. لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد بجهالته. كما أخبر بذلك – ترجمان القرآن –

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) من ذلك ما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت الرسول ﷺ يقول وهو على المنبر «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا وإن القوة الرمي وغيرهما عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ : من نوقش الحساب عذب قلت يا رسول الله أليس يقول الله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض.

عـبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – فيما رواه ابن جرير في تفسيره. حيث قال: التفسير على أربعة أوجه:

أ- وجه تعرفه العرب من كلامها.

ب- وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.

ج- وتفسير تعرفه العلماء.

د- وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى [١].

(١) راجع تفسير ابن جرير الطبري ج ١ ص ٢٥.

المصدر الثالث

الاجتهاد والاستنباط

الأسس التي اتبعها الصحابة – رضوان الله عليهم – في تفسير آيات القرآن الكريم يمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: معرفة قواعد اللغة العربية ودلالاتها التي تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب وعاداتهم.

ثانياً: معرفة الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية لأهل الكتاب الذين كانوا يقطنون الجزيرة العربية وقت نزول الآيات.

ثالثاً: معرفة أسباب النزول، لأنه عامل مهم في معرفة آيات القرآن الكريم. ولهذا يقول الإمام الواحدي:

«لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على أسباب نزولها» [١].

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن الكريم [٢] وقال ابن تيمية – رحمه الله – معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية لأن العلم بالسبب، يورث العلم بالمسبب [٣].

---

(١) راجع منهج الفرقان ج١ ص ٣٩ والتفسير والمفسرون ج١ ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مذهب الجمهور في اللفظ العام الوارد على سبب معين. أن العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والذي يوضحه ابن تيمية أن القائلين بأن العبرة بخصوص السبب لم يقولوا ذلك على معنى أن حكم الآية مختص بمن نزلت بسببه دون غيره – مشيراً بذلك
==

المصدر الرابع

أهل الكتاب من اليهود والنصارى

نقول ذلك: لأن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل، وبالأخص قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة.

غير أن القرآن الكريم لم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة. لهذا جاء بعض الصحابة للتعرف على جزئيات بعض القصص عند من دخل إلى الإسلام من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهم وذلك في بعض الآيات التي لم يصدر عنها تفسير من الرسول ﷺ (١).

==

إلى أن الحكم يتعدى عندهم وعند الجمهور إلى أفراد غير السبب. انظر بسطاً وافياً لهذا الموضوع في كتاب مناهل العرفان للزرقاني ص ١١٨ وما بعدها، والإتقان للسيوطي ١/ ٥٠ ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص٣٧-٣٨.

(١) هذا المصدر لم يكن له أهمية المصادر السابقة بسبب ما وقع في التوراة والإنجيل من التحريفات وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – لا يأخذون إلا ما يتوافق مع عقيدتهم، ولا يتعارض مع ما جاء من آيات القرآن الكريم. راجع التفسير والمفسرون ج ١ ص ٦٢.

ثانياً: أنواع التفسير

التفسير بالمأثور

هو ما جاء من البيان والتفصيل لبعض آيات القرآن الكريم، وما نقل عن الرسول ﷺ والصحابة – رضوان الله عليهم والتابعين – لنقلهم من الصحابة – لكل ما فيه بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. وقد تدرج التفسير المأثور في دورين دور الرواية، ودور التدوين.

أولاً: الرواية

هو ما بينه الرسول ﷺ لأصحابه لكل ما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

فكان هذا البيان والتوضيح يتناوله الصحابة بالرواية لبعضهم البعض ولمن جاء بعدهم من التابعين. ثم وجد من الصحابة والتابعين من تكلم في تفسير القرآن بما ثبت عن الرسول ﷺ، وبما أدى إليه محض رأيه واجتهاده.

ثانياً: التدوين

يرى كثير من العلماء أن أول ما دون كان التفسير المأثور، وكان رجال الحديث أصحاب الشأن في ذلك ودونوه على أنه من أبواب الحديث. ثم انفصل عن الحديث وأفرد بتأليف خاص.

وكان أول ما عرف من ذلك، الصحيفة التي رواها علي بن طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – كما ذكر ذلك صاحب الإتقان [١].

ثم توالى التدوين في موسوعات من الكتب المؤلفة. جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروي عن النبي ﷺ والصحابة وتابعيهم وأجل التفاسير في ذلك: تفسير ابن جرير الطبري [٢].

ويشبه من تفسير الطبري، تفسير ابن كثير [٣] ومن مزاياه الدقة في الإسناد وبساطة العبارة والوضوح في الفكرة.

وتبعاً لهذا المنهج ألف السيوطي [٤] كتابه القيم «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» لكن التفسير بالمأثور تعرض للنقد الشديد لأن بعض الصحيح من الروايات قد اختلط بغير الصحيح.

وللـيهود وغيرهم نشاط لا يجهله أحد في الدس على الإسلام، ومحاولة النيل منه، وصاحب (التفسير والمفسرون) يكاد يحصر ما شاب التفسير المأثور في النقاط الآتية:

---

(١) راجع الإتقان ج ٢ ص ٨٨.

(٢) راجع مباحث في علوم القرآن ص ٢٩٠-٢٩١.

(٣) ت سنة ٧٧٤هـ.

(٤) ت سنة ٩١١هـ.

أولاً: كثرة الوضع وبدأ ذلك عندما تفرق المسلمون إلى شيع وأحزاب. ودخل في الإسلام من تبطن بالكفر بقصد الكيد للإسلام وأهله بوضع رواياتهم الباطلة.

ثانياً: دخول الروايات الإسرائيلية في التفسير وخصوصاً القصص الخيالية المخترعة مما جعل الناظر في تلك التفاسير يكاد لا يقبل منها شيئاً.

ثالثاً: حذف الأسانيد هو السبب الأخير الذي أدى إلى ضعف التفسير لدخول الدخيل والتباس الصحيح بالعليل [١] فمتى يتفرغ بعض علماء المسلمين لتنقية التفاسير مما شابها – من الحشو والدخيل؟ - نرجو من الله العلي القدير أن يوفق صفوة من العلماء للقيام بهذا العمل الجاد المثمر الذي يعيد للأمة الإسلامية ثقتها بتلك التفاسير. فتكون معواناً للتمسك بدينها ودافعاً لتجميع فرقتها. وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) راجع مباحث في علوم القرآن، ص ٢٩١.

التفسير بالرأي:

المراد بالرأي الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب والشروط التي وضعها رجالات التفسير لمن يتناول كتاب الله بالتفسير.

وقد وقف العلماء من هذا النوع من التفسير موقفين متعارضين:

الأول: عدم الجواز:

وحجتهم أن التفسير بالرأي منهي عنه؛ لأنه قول على الله بغير علم. وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (١).

وفي الحديث: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» (٢).

وما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (٣).

يقول ابن تيمية: روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح: راجع الطبري ١-٧٧-٧٨، وسنن الترمذي ٨/ ١٤٦، ومختصر أبو داود ٥/ ٣٤٩.

(٣) سنن الترمذي ٨/ ١٤٦ وقال هذا حديث غريب وأخرجه الطبري ١-٧٩، وسهيل بن أبي حزم تكلم فيه الإمام أحمد، والبخاري والنسائي وغيرهم. وشرح أبي داود ٥/ ٢٤٩.

ثم يقول: ولهذا تحرج جماعة من السلف من تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان، عن عبدالله بن مرة، عن أبي معمر. قال: قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – : «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم» (١). ثم يتابع ابن تيمية – رحمه الله في ذكر كثير من نصوص العلماء وأقوالهم في هذا الشأن (٢).

الثاني: الجواز:

استدلوا بالآتي:

أ- بنصوص كثيرة في كتاب الله تعالى كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (٣).

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (٤).

وإذا كان الله قد حثنا على التدبر وتعبدنا بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه فهل يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء..؟

ب- لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ولتعطل الكثير من الأحكام وهذا باطل بيِّن البطلان.

ج- دعوة النبي ﷺ لابن عباس – رضي الله عنهما – «اللهم فقهه في

---

(١) ذكر هذا الأثر بنفس الإسناد الحافظ ابن كثير. وقال فيه: وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق – رضي الله عنه – . وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٣.

(٢) راجع مقدمة في التفسير لابن تيمية ص ٩٤-٩٩.

(٣) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٤) سورة ص: الآية ٢٩.

الدين وعلّمه التأويل».

ونرى أن القول الفصل في هذه القضية ما ذكره الراغب الأصفهاني [١] بعد أن ذكر آراء المجوزين والمعارضين قال: ذكر بعض المحققين أن المذهبين هما الغلو والتقصير. فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه. ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [٢].

ونختم حديثنا في التفسير بالرأي بما قاله حجة الإسلام ابن تيمية والذي يكاد يتوافق مع ما ذكره الراغب الأصفهاني حيث قال: «ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه. هذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به. فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه» لقوله تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [٣]. ولما جاء في الحديث المروي من طرق. من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار [٤]. هذا والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني ص ٤٢٣.

(٢) سورة ص: الآية ٢٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير والأوسط من رواية عبدالله بن عمرو ورجال ثقات، أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود من طرق ، وابن ماجه. راجع مجمع الزوائد ١/ ١٦٣. وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٣٧٤.

التفسير العلمي
نشأته وتطوره

أ- نشأته:

يقرر الكثير من الباحثين، أن نشأة التفسير العلمي، كانت مواكبة للنهضة العلمية في الدولة العباسية. وكانت بداية ذلك محاولات قصد منها التوفيق بين آيات القرآن الكريم وما جد من العلوم في كثير من التخصصات. ولم يمض على تلك المحاولات كثير وقت حتى تطورت لتنتج تفسيراً علمياً وضع قواعده وأرسى أركانه علماء أجلاء عرفوا برجاحة العقل، وبراعة التدوين، وقوة الإيمان.

أهم المؤلفين:

كان من أوائل من دوّن في هذا العلم - الإمام الغزالي [١] في كتابه «إحياء علوم الدين».

يقول في الباب الرابع من هذا الكتاب [٢]: «إن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع».

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، له نحو مئتي مصنف ت في ٥٠٥هـ.

(٢) إحياء علوم الدين ج ١، ص ٢٩١. ط: فيصل الحلبي - مصر.

ثم يؤكد كلامه بما روى عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال:«من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن» [١] وقول الرسول ﷺ : «اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه» [٢].

وفي كتابه «جواهر القرآن» يتناول في الفصل الخامس منه كيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب، وعلم النجوم، وهيئة العالم وهيئة بدن الإنسان والحيوان وعلم التشريح، وعلم السحر الخ... [٣].

ثم يبدأ في تفصيل ذلك فيقول: إن هذه العلوم جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى. وهو بحر الأفعال. وهو بحر لا ساحل له. وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، ومن هذا البحر «الشفاء والمرض» كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم – عليه السلام – ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [٤].

وهذا الفعل الواحد، لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٩٠.

(٢) رواه ابن شيبة في المصنف، وأبو يعلى الموصلي، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ «أعربوا» وسنده ضعيف.

(٣) جواهر القرآن ص ٢١-٣١. ط: كردستان سنة ١٢٢٩هـ.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٨٠.

ومن أفعاله تعالى: معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان قال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ (١) وقال: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (٢).

وقال: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ ﴾ (٣).

وقال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ (٤).

وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ ﴾ (٥).

ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم «قائم» برأسه.

ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ (٦).

---

(١) سورة الرحمن: الآية: ٥.

(٢) سورة يونس: الآية ٥.

(٣) سورة القيامة: الآيتان ٨-٩.

(٤) سورة الحج: الآية ٦١. وسورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٥) سورة يس: الآية ٣٨.

(٦) سورة الانفطار: الآيات ٦-٨.

إلا من عرف تشريح أعضاء الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها. وقد أشار القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين. وكذلك لا يعرف معنى قوله: ﴿ سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [١].

من لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق [٢].

ب- أبو الفضل المرسي [٣]

قال في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم. ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم.

ثم يتكلم عن العلوم التي حواها كتاب الله تعالى علماً ويخلص من ذلك فيقول: هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه. وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة.

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢٩. وسورة ص، الآية ٧٢.

(٢) راجع جواهر القرآن من ص ٣٢-٣٤ بتصرف.

(٣) محمد بن عبدالله أبي الفضل المرسي عالم بالأدب والتفسير والحديث له «التفسير الكبير» يزيد على عشرين جزءاً سماه «ري الظمآن» والتفسير الأوسط عشرة أجزاء، والصغير ثلاثة أجزاء ، توفي عام ٦٥٥هـ، انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٣٣.

أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة واستجماع القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (١).

وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (٢).

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففي قوله تعالى: ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ ﴾ (٣).

فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له. ثم يتكلم عن أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة في قوله تعالى: ﴿ طَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ (٤).

والحدادة في قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ (٥).

والنجارة في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٦).

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٦٩.

(٣) سورة المرسلات: الآيتان ٣٠-٣١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٢. وسورة طه، الآية: ١٢١.

(٥) سورة الكهف: الآية ٩٦.

(٦) سورة هود: الآية ٣٧.

والغزل في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾[١].

والزراعة: في قوله تعال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾[٢].

والصياغة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾[٣]. وغير ذلك كثير.

ج- جلال الدين السيوطي[٤]

سار جلال الدين السيوطي على الطريق التي سار فيها الإمام الغزالي وأبو الفضل المرسي وغيرهما في القول بالتفسير العلمي.

والمستعرض لكتابه «الإتقان» في النوع الخامس والستين[٥] منه وكتابه «الإكليل في استنباط التنزيل»، نجده يسوق من الآيات[٦] والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٢.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٦٣-٦٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٤) هو عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين إمام حافظ مؤرخ له حوالي ٦٠٠ مصنف، ت ٩١١هـ، انظر: معجم طبقات الحفاظ والمفسرين للسيروان، ص٢١ .

(٥) راجع الإتقان ٢/ ١٢٦-١٢٨.

(٦) كقوله تعالى في سورة الأنعام آية رقم ٣٨: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. ومن سورة النحل آية رقم ٨٩: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

التفسير العلمي في العصر الحديث

اهتم كثير من العلماء الذين لهم عناية بالعلوم، وعناية بالقرآن الكريم في عصرنا هذا بالتفسير العلمي ودونوا فيه الكثير من المؤلفات التي لاقت قبولاً ورضا عند الكثير من عامة المسلمين وخاصتهم ومن هؤلاء:

١- محمد بن أحمد الاسكندارني [١]

ألف هذا الطبيب كتابه «كشف الأسرار النورانية القرآنية» [٢] ذكر فيه ما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية، والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية وهو كتاب قيم تناول فيه الكثير من العلوم وأسرار الكواكب والنجوم وما يخص حكمة الله تعالى في خلق الأزواج في الحيوانات والنباتات وكل ما هو كائن على وجه الأرض واضعاً نُصب عينيه دائماً آيات الإعجاز في كتاب الله تعالى.

---

(١) ت ١٣٠٦هـ، انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢١.

(٢) الكتاب يقع في ثلاثة مجلدات، ط: المطبعة الوهبية مصر سنة ١٢٩٧هـ. توجد نسخة بدار الكتب المصرية.

٢- عبدالرحمن الكواكبي [١]

ألف هذا العالم الجليل كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» [٢] يقول في مقدمته: «إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف لرأوا في ألوف من آيات القرآن آيات من الإعجاز».

ثم يتكلم عن الكشوف العلمية التي قام بها العلماء في أوروبا وأمريكا. ثم يعقب على ذلك قائلاً: والمدقق في الاكتشافات العلمية يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في آيات القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غطاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهروها معجزة للقرآن الكريم [٣].

ثم يقدم العديد من الأمثلة على ذلك، فيقول: كشفوا أن مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [٤].

---

(١) عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي رحالة من الكتّاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح الإسلامي ت عام ١٣٢٠هـ، انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٢٩٨.

(٢) هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرها المؤلف في بعض الصحف عندما زار مصر عام ١٣١٨هـ وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له ب (الرحالة ك).

(٣) طبائع الاستبداد ص ٢٣-٢٥.

(٤) سورة فصلت: الآية ١١.

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [١].

وكشفوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول: ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [٢].

وكشفوا أنه لو لا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تميد الأرض، أي ترتج في دورتها والقرآن يقول: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [٣]. وغير ذلك كثير مما حواه هذا الكتاب المعلم.

٣- مصطفى صادق الرافعي [٤]

ألف كتابه في إعجاز القرآن [٥] والذي يقرر فيه أن القرآن الكريم، بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العالم كله، من لدن ظهور الإسلام إلى ما شاء الله [٦]. ثم يسترسل ويقول: وقد استخرج بعض علمائنا ما يشير إلى

---

(١) سورة يس: الآية ٤٠.

(٢) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٥. وسورة لقمان، الآية: ١٠.

(٤) هو مصطفى صادق بن عبدالرزاق الرافعي عالم بالأدب من كبار الكتاب من طرابلس الشام له العديد من المؤلفات ت عام ١٣٥٦هـ، انظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.

(٥) طبع في مصر – طبعات عدة وفي سوريا ولبنان.

(٦) راجع إعجاز القرآن ص ١٠٨.

مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسط كل ذلك ليس هو من غرضنا في هذا الكتاب [١].

ثم تتابعت الكتب والمؤلفات التي دبجتها براعة العلماء أمثال كتاب «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» لطنطاوي جوهري وكذلك مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي. ومن سار على نهجهم إلى وقتنا الحاضر.

ولا نريد أن نتوسع في التمهيد أكثر من ذلك ونرجو من الله العلي القدير أن يوفقنا في هذا البحث وأن يهدينا إلى أقوم السبل في تدوينه حتى يكون لأمة الإسلام مشعلاً على الطريق. وبداية لعمل أكبر في خدمة الإسلام والمسلمين.

(١) وعند هذا نقل الكثير من كتاب «طبائع الاستبداد وعلق عليه».

الباب الأول

كتاب الله منهج متكامل لتنظيم وتطوير الحياة والكون

الفصل الأول

كتاب الله شامل للعلم بحقيقة أن الإنسان خليفة الله في الأرض

الإنسان في علم الله تعالى، وفي منهج القرآن الكريم خلق لمهمة جليلة، وأوجده الله لغاية نبيلة – ليقوم بدور الخلافة في الأرض.

قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢).

هذه النفخة الإلهية هي التي تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للقرب من خالقه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ (٣).

وقوله أيضاً: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (٤).

وهذا المخلوق المتفرد في كون الله أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته بالسجود له. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (٥)

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٢٨-٢٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٤) سورة العلق: الآية ١٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٤.

وعلَّمه وأدَّبه قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ (١).

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ القرآن الذي هو منهج السماء للأرض. القرآن الذي يخاطب الإنسان بأنه خليفة الله في الأرض. وأنه حامل الأمانة الكبرى التي أشفقت السماوات والأرض من حملها قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ (٢).

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ عن طريق تحريك اللسان والشفتين والفك والأسنان والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والرئتين لأنهم جميعاً يشتركون في عملية النطق والكلام.

﴿ٱلْبَيَانَ﴾ حَدُّ فاصل بين الإنسان وسائر المخلوقات، يقول الراغب الأصفهاني: البيان الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق مختص بالإنسان، ويسمى ما بُيِّنَ به بياناً... ويسمى الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ (٣) ويسمى ما يُشْرَحُ به المجمل والمبهم من الكلام بياناً، نحو قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ (٤).

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١-٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٣٨ .

(٤) سورة القيامة آية ١٩، وانظر: المفردات ص٦٩.

وتعليم القرآن وتعليم البيان ينتظم كل علم يتصل بالقرآن والإنسان والوجود. وكشف ما في القرآن والوجود من أسرار. يحدث هذا بعد خروجهم من بطون أمهاتهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ (١).

لسانه وشفتاه وهما أداة النطق والتعبير، وبهما يملك الإنسان أن يصنع الكثير في كون الله. والكلمة قد تكون أداة السلام والأمان وأحياناً تشعل الحرب وتدمر العمران. وأخرى قد تهوي بصاحبها إلى النار، من ذلك ما رواه معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير.

فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار؟

قال: سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان،وتحج البيت. ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير..؟

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ثم تلا قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ

(١) سورة البلد: الآيات ٨-١٠.

عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه..؟

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد.

ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: أمسك عليك هذا وأشار إلى لسانه.

قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به...؟

قال: «ثكلتك أمك يا معاذ؟ وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النارِ على وُجُوهِهِمْ - أو قال على مناخرهم - إلا حصائدُ ألسنتهم؟»[2].

ثم ماذا..؟ حفظه الله من كل ما يسوءه أو يضره من الخارج أو يبعده عن منهاج ربه ودستور حياته الذي وضعه له. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3].

هؤلاء الحفظة وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ حتى يرعوي

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٦.

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل في المسند: ٢٣١، ٢١٦، والترمذي في الإيمان ٨، وابن ماجه في الفتن ١٢.

(٣) سورة الانفطار: الآيات ١٠-١٢.

الإنسان ويخجل أن يعمل شيئاً أمام هؤلاء الكرام.

والإنسان دائماً يحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أو يسف أو يبتذل في لفظ أو حركة أو تصرف فكيف به حين يشعر ويتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة كرام..؟

وقد روى ابن كثير في تفسيره عن مجاهد. قال رسول الله ﷺ «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا في إحدى حالتين الجنابة والغائط». وعن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة» (١).

وكيف لا يكون كذلك والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ (٢).

إنها الرحمة الواسعة التي لا تقف عند حد، إنها دعوة الأمل والرجاء لخليفته في كوكب الأرض والثقة في عفوه. لأن الله رحيم بعباده وهو يعلم ضعفهم وعجزهم. ويعلم العوامل والدوافع المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ويأخذ عليهم كل طريق

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦ ص ٥١٤-٥١٦.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

ويجلب عليهم بخيله ورجله. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كلف هؤلاء الحفظة ليحفظوه من الخارج فلله جنود السماوات والأرض الذين يحفظونه من الداخل. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١) وقوله: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢).

إننا نرى أن جسم الإنسان عبارة عن مدينة حصينة يحيط بها سور متين تحاصره جيوش تعد بالآلاف من الميكروبات. والتي تريد أن تنقض عليه. ولكنه الله سبحانه وتعالى حصن هذا الجسم بجنود وجيوش قاتلة لهذه الميكروبات تسمى كرات الدم الحمراء. وكرات الدم البيضاء.

وجيوش الأعداء لا تجد لها باباً مفتوحاً أمامها تخترقه إلى الجسم إلا عن طريق الفم فتدخل منه – وتستمر في الزحف حتى تصل إلى المعدة – والتي تعد قلعة حصينة مزودة بكل الأسلحة والتي يمكنها أن تقضي بها على الميكروب الذي زحف إليها من الخارج.

وهذه الأسلحة هي عصارة المعدة التي لا تنضب منها – وهي تقوم بهضم الطعام وقتل بعض الميكروبات.

ولكن إذا أسرع الطعام بالانزلاق من المعدة وجرى إلى الأمعاء فإن تلك الميكروبات لا تموت. ولكنها تسير مع الطعام. وما تكاد تصل إلى الأمعاء حتى

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٢١.

تلاقي حتفها. لأنها لا تجد الأكسجين الذي لا تعيش إلا به. ومن هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى حصن جسم الإنسان بخطوط دفاع ثلاثة:

الأول: وهو الجلد.

الثاني: وهو عصارة المعدة.

الثالث: الأمعاء وهي المهلكة لكل ميكروب عن طريق كرات الدم البيضاء.

هذا ما كان من جهة الميكروبات الواصلة عن طريق الفم. فإذا وصلت عن طريق آخر وتكاثرت. كأن وصلت عن طريق إصابته بجرح حدث للجسم وتكاثرت فيه الميكروبات بأي طريق كان فإنها تتوغل في الجسم وتفتك بالكرات البيضاء، وتتغذى بالمواد الغذائية التي تخزن في جسم الإنسان.

عندها يصل الخبر – خبر الأوبئة الفاتكة – إلى الكرات الجديدة والتي تفرز عن طريق الأمعاء وتحاصر المكان الذي تعسكر فيه الأوبئة فتقتل هذه الأوبئة والميكروبات قتلاً وإبادة حتى لا يبقى منها شيء. وبعد هذه المعركة تتحول هذه الأوبئة إلى مادة صفراء ينبذها الجسم إلى خارجه.

ونقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا نرى الأمراض المتوطنة. والأمراض المعدية تنتشر بكثرة في بعض المجتمعات..؟

يقول علماء الطب يحدث ذلك لضعف المناعة في داخل الجسم وضعف كرات الدم البيضاء في خلايا الإنسان. ولذلك لا يحدث ذلك في الغالب إلا

في أوساط الطبقات الفقيرة الذين يعانون من ضعف تركيب بنيتهم وهزال أجسامهم والذي لا يجد حاجته من الغذاء الذي يغذي جهاز المناعة في جسمه.. ؟

لهذا نرى أن منهج الإسلام ينصح الإنسان دائماً بتحريك الجسم، وتعريضه للهواء النقي والشمس الهائدة ومزاولة الرياضة التي تكون كالمنبه والمنشط لكل خلايا الجسم.

وفي حديث الرسول ﷺ : «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل». ثم ماذا؟

أولاً: منح الله الإنسان حرية الاختيار، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[1].

فكل فرد في المجموعة الإنسانية يحمل همّ نفسه وما فعله في دنياه من خير وشر. فالنفس البشرية رهينة بما فعلته وقد بين الله سبحانه وتعالى لخليفته في الأرض طريق الصلاح والفلاح، وطريق الخسارة والهوان.

أما أصحاب اليمين فهم في جنات يتنعمون. وأما الذين كانوا يتكبرون في الأرض بغير الحق. ولا يأتمرون بأمر الله. ولا يبتعدون عما نهى الله عنه فهم في سقر نار مشتعلة وعذاب دائم. وهوان كبير.

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.

عندما تتكشف الحقائق. ويظهر المستور. وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ما سلكهم في سقر قالوا: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[١] تركوا عمود الدين. وابتعدوا عن الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه: والتي يقول فيها رب العزة ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[٢].

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾[٣] المسكين الذي لا يجد قوت يومه يقول رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله وأقرب الخلق إلى الله أحسنهم إلى عياله»[٤] ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾[٥] فهم في لهو ولعب، وفحش وتفاحش. وإهمال لما أمر الله به. ورجس وفسوق.

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[٦] ينكرون الحياة الآخرة. ينكرون الحساب والعقاب. ينكرون الجنة والنار ويصمون آذانهم عن قول الله تعالى:

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة العلق: الآية ١٩.

(٣) سورة المدثر: الآية ٤٤.

(٤) الحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٥) سورة المدثر: الآية ٤٥.

(٦) سورة المدثر: الآية ٤٦.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [١] وقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٢].

وينكرون شهادة جلودهم عندما تتحول كل ذرة فيها إلى فم ينطق ويتكلم: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [٣].

ثانياً: ومنحه الله الإرادة القوية ليفرق بين الحق والباطل بين التقوى والفجور، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [٤].

وهذا الآيات الأربع مع آية سورة البلد ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ والتي تحدثنا عنها سابقاً وآية سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [٥].

إن هذه الآيات تبين وتوضح أن هذا الإنسان مخلوق مزدوج الاستعداد ونعني بذلك أنه بطبيعة تكوينه من طين الأرض ونفخة من روح الله قد زود باستعدادات متساوية للخير والشر. والهدى والضلال.

---

(١) سورة الحاقة: الآية ١٨.

(٢) سورة النور: الآية ٢٤.

(٣) سورة فصلت: الآية ٢١.

(٤) سورة الشمس: الآيات ٧-١٠.

(٥) سورة الإنسان: الآية ٣.

فهو قادر على التمييز كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الصلاح والضلال وأن هذه القدرة كامنة في كيانه يعبر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [١] ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [٢].

وهناك إلى جانب الاستعدادات الفطرية قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة.

ومن رحمة الله بالإنسان لم يدعه للاستعداد الفطري ولا للقوة العقلية الواعية المالكة للتصرف.

فأعانه بإرسال الرسل والكتب التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة وتكشف له عن موجهات الإيمان ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق. وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا شبهة فيه وهذه في جملتها هي مشيئة الله تعالى بالإنسان وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لهذه المشيئة. وقدر الله تعالى الذي قدره على عبيده ومن هنا تظهر قيمة الإنسان حيث جعله الله تعالى أهلاً لاحتمال التبعة والمسئولية، ومنحه حرية الاختيار – في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية. فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم ويقرران له في هذا الوجود مكانة عالية تليق بخلافته في الأرض.

---

(١) سورة الشمس: الآيتان ٧-٨.

(٢) سورة البلد: الآية ١٠.

تكريم الله تعالى لخليفته

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

كرمه عندما بدأ خلقه من قبضة طين الأرض ونفخة من روح الله.

كرمه ربه بأن جعله خليفة له في أرضه.

كرمه بأن سخر له الكون كله وبكل ما فيه من أرض ووهاد، وسهول وجبال وتربة تنبت الشجر والنبات.

وبحار ذات أمواج يخرج منها لحماً لطعامه. وعشباً لحيواناته. ولؤلؤاً وجواهر للزينة والجمال.

وكرمه بأن أمر صفوة خلقه بالسجود له، وأخذ المعرفة من بين يديه قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٣.

ويـرى الإمام القرطبي: أن الواجب على من سئل ولم يعلم أن يقول: الله أعلم ولا أدري.

يفعـل ذلـك اقـتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، ثم ذكر ما حدث للإمام مالك عندما سئل أنه قال في اثنتين وثلاثين مسألة لا أدري..؟

ثـم يقـول: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فيه الفساد وكـثر فـيه الطغـام؟ وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا وغلـبة الأقـران بالمـراء والجـدال الـذي يقسـي القلب، ويورث الضغن وذلك يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله..؟ [1].

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٨٥ – ٢٨٦ بتصرف.

تسخير الكون بكل ما فيه للإنسان

يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ ﴾ (١).

الماء هو أساس الحياة على سطح الأرض، وشرط من أهم شروط استمرارها وأشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أن الماء هو سبب نشوء الحياة على كوكب الأرض.

وخلق الله تبارك وتعالى الماء لكل ما هو كائن حي على وجه البسيطة. ويشكل الماء منافع كثيرة سخرها الله تعالى لخليفته في أرضه وتيسر له معيشته.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٢).

وقوله أيضاً: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (٣).

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى أن نزول الماء من السماء على سطح الكرة الأرضية، لا يأتي بمحض المصادفة، أو بصورة عشوائية لأن نزوله بأمر من الله

---

(١) سورة النحل: الآيتان ١٠-١١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦.

تعالى وبقدر مقدر تقديراً محكماً فهو آية من آيات الله التي سخرها لنا، وبكميات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وصدق ربي في قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[١].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[٢].

فالليل والنهار لم يخلقا للإنسان وإنما هما مسخران له، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾[٣].

ليس لأحدهما أن يسبق الآخر، أو يتأخر عن موعد ظهوره الذي حدده الله له. قال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٤].

وكذلك الشمس والقمر، والكواكب والنجوم قدرها الله سبحانه وتعالى لخليفته في أرضه.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٥].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢.

(٣) سورة النبأ: الآيتان ١٠-١١.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

(٥) سورة النحل: الآية ١٣.

الله سبحانه وتعالى جعل الأرض مستودعاً لكثير مما يحتاجه الإنسان في فترة بقائه على هذا الكوكب الأرضي. فأوجد فيها النبات الذي يخرج الحبوب والبقول. والأشجار التي تهتز أغصانها بنعم الله من الفاكهة الكثيرة والثمرات اللذيذة والخير الوفير.

وأوجد في باطن الأرض المعادن المختلفة والحديد المتنوع والذي قال الله تعالى عنه ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾[١] وأوجد في قشرتها الخارجية الكثير من الديدان والحشرات غذاء للحيوانات الزاحفة، والطيور المحلقة في جو السماء. وغير ذلك من الخيرات التي لا تحصى ولا تعد.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٢].

من الأعمال النشطة التي يقوم بها الخبراء في أعماق البحار والمحيطات والتي توصلوا من خلالها إلى أن المحيطات ليست مستودعاً للمياه فحسب ولكنها مخزون لكل ما تتطلبه حياة البشر من معادن لصنع آلاتها. وفوسفات لتغذية زراعاتها، وأحجار كريمة من لؤلؤ وذهب وفضة لزينة نسائها وزيادة ثرواتها. قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل: الآية ١٤.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٢.

يقول العلماء: إن السيول الجارفة المتدفقة نحو البحار من أعالي الجبال تجرف أمامها ملايين الأطنان من المعادن المذابة وغير المذابة فتستقر في قاع المحيطات.

وبمناسبة ذكر المعادن فلقد قدرت بعثة سفينة الاستكشاف السوفيتية (فيتياز) النحاس الموجود في قاع البحار بحوالي ٧٩٠٠ مليون طن.

ويقول العلماء بأنه توجد كميات كبيرة من المعادن سواء أكانت على شكل أملاح ذائبة أو معلقة أو على شكل معادن صلبة ترقد فوق القاع.

وتشكل الأملاح الذائبة ما يأتي:

١- أملاح الكلور.

٢- الصوديوم.

٣- الماغنسيوم.

٤- الكبريت.

٥- الكالسيوم.

٦- البوتاسيوم.

٧- الكربون.

كما أنه توجد أجسام معدنية دقيقة على هيئة جزيئات معلقة بمياه البحار ويعتقد بعض الباحثين أن حوالي ١٥٪ مما في البحار من معدن المنجنيز يوجد

على هذه الهيئة الدقيقة المعلقة [١].

لقد تحدث كتاب الله تعالى بوجود هذه الأشياء منذ أربعة عشر قرناً ولكن علماء المسلمين – لم يتنبهوا لكل ما ذكره الله تعالى في كتابه، وذلك لحكمة أرادها العليم الخبير.

إن كتاب الله تعالى ليس معجزاً بعباراته فقط ولا ببلاغته فحسب ولكنه معجز لأنه يخاطب البشرية جمعاء حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن كل جيل من الأجيال يتعاقب على كوكب الأرض سيجد في كتاب الله تعالى عطاء لاستمرار حياته – وبلسماً شافياً لأمراضه – وهداية ومعرفة جادة تجعله قريباً من ربه. وطريقاً ممهداً لوضع يده على الثروات المخبوءة والكنوز الموضوعة، في باطن الأرض أو في أعماق البحار ولقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده بذلك في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [٢].

إن مسلمي هذا الزمن لو تمسكوا بكتاب ربهم لدانت لهم الدنيا كما دانت لأسلافهم ولكنهم وضعوا هذا الكتاب وراء ظهورهم وجعلوه تمائم لمرضاهم ورقياً لأطفالهم وحلية لمنازلهم.

---

(١) عجائب المخلوقات بين منهج القرآن والعلم الحديث، ص ١١٠-١١٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

إن هـذا الكـتاب يحـوي تـاريخ هـذا الكـون الذي لا يحد ويحوي تاريخ البشرية من يوم إنشائها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فعـل الله ذلـك حـتى يحققـوا دور الخلافة على ظهر البسيطة وهو الخبير بكل ذرة من ذراتهم وبكل خلجة من خلجاتهم.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ (١).

******

(١) سورة الملك: الآية ١٤.

الفصل الثاني

كتاب الله شامل للعدل المطلق بين جميع المخلوقات

لما نزل قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ (١).

عن عثمان بن مظعون قال: هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فتعجب وقال: «يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق». وقال عكرمة: قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» إلى آخر الآية.

فقال الوليد: يابن أخي أعد. فأعاد عليه. فقال: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر».

وحكى النقاش قال: يقال زكاة العدل الإحسان. وزكاة القدرة العفو. وزكاة الغنى المعروف.

وقال ابن العربي في تعريف العدل: العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر. وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها. قال

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾[١].

وعزوف الأطماع عن الإتباع، ولزوم القناعة في كل حال.

أما العدل بينه وبين الناس. فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قلّ أو كثر. والإنصاف من نفسك لهم بكل وجهه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن. والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى[٢].

فلا إله إلا الله – فلا خضوع لصنم أو وثن أو شمس أو قمر. وتوحيد المعتقد فلا دين إلا الإسلام فلا أوامر للسدنة ولا الكهان.

وتوحيد البشرية. كلكم لآدم وآدم من تراب. فليس هناك خلق برزوا من رأس الإله وآخرون خرجوا من قدمه.

وليس هناك خلق لهم القداسة لأنهم تجري في عروقهم الدماء المقدسة فالكل خلق الله، والكل عبيده. خلقهم من طين الأرض ونفخه من روح.

هذا الإنسان يجب أن يعيش في رحاب العدل المطلق. فما لأحد عليه غير الله من سلطان.

وما من أحد من البشر يملك له ضراً ولا نفعاً.

وما من أحد يملك حياته وموته.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان ٤٠-٤١.

(٢) راجع تفسير القرطبي جـ١ ص ١٦٥.

وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض ولا في السماء.

وليس بينه وبين الله – صاحب العدل المطلق – وسيط ولا شفيع.

وكيف يكون ذلك والخالق المبدع يقول: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[١].

والله وحده هو الذي يستطيع والكل سواه عبيد.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[٢] وهو الرحيم الودود الغفور الكريم.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[٣].

فالخوف على الرزق لا مكان له في كتاب خاتم الأنبياء الذي يقول فيه رب العزة لعباده ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٤].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾[٥].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[٦].

والخوف على الجاه، والخوف على المنصب، والخوف على الوظيفة –

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٢٢.

(٥) سورة التوبة: الآية ٢٨.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

خارج عن نطاق منهج الله تعالى الذي أنزله لعباده بقوله:

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وعن طريق منهج العدل المطلق الذي أمر الله تعالى به في كتابه تحرر وجدان الإنسان من الداخل.

تحرر من أسر الأولاد، وتحرر من أسر الزوجات بمجرد سماعهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2].

وتم تحريره من حب الشهوات وتحريره من المطامع والرغائب ونقط الضعف قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٢) سورة التغابن : الآية ١٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥.

وتحرر وجدانهم من المطامع والرغائب ونقض الضعف. من ذلك ما أخرجه ابن عبدالحكم عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم. قال: عذتَ معاذاً. قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو – رضي الله عنهما – يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه. فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأَلأَمَيْن. قال أنس: فضرب والله! لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنيا أنه يرفع عنه. ثم قال للمصري: ضَعْ على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استَقْدت منه. فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني [١].

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢/ ٩٧ .

العدل المطلق بين البشر جميعاً

يقرر كتاب الله تعالى أن الجنس كله من تراب، والفرد – كل فرد – خلق من ماء مهين ويكرر الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديثه «أنتم بنو آدم وآدم من تراب» (١).

فإذا انتفى أن يكون فرد أفضل بطبيعته من فرد فليس هناك من جنس وليس هناك من شعب هو بنشأته وعنصره أفضل يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (٢).

ولقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة فبلغ بذلك إلى قمة العدل والإنسانية والحضارة. نعم الحضارة الحقيقية لا الحضارة الغربية التي تبيح للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناءً منظماً تحت سمع الدول وبصرها.

ثم تأتي وتدعي أن في الدول العربية والإسلامية إرهاباً وتطرفاً. هل حدث أن دولة من دول الإسلام أبادت شعباً كاملاً كما فعلت أمريكا.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في التفسير سورة ٤٩ والمناقب ٧٣ وأبو داود في الأدب ١١١. وأحمد بن حنبل في المسند.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

هل حدث من هؤلاء الذين تسميهم أمريكا بالإرهابيين والمتطرفين أن أوجدوا التفرقة بين البيض والسود.

هل حدث من دول الإسلام أن فعلت كما فعلت الحكومات الأخرى بإباحة دماء المسلمين – وهتك أعراضهم – ووضع أجنة الكلاب في أرحام نسائهم كما حدث في البوسنة والهرسك والشيشان والصومال، وجزر القمر..؟ اللهم عفوك ورضاك.

العدل المطلق في المعارك والحروب

يقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[1].

يقول الخليفة أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – للجيش الخارج لنشر دين الله: لا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة ولا تذبحوا ناقة ولا بقرة ولا شاة.

وستمرون بقوم يعبدون الله في الصوامع فدعوهم وما خلوا أنفسهم له. فلن يقاتل هؤلاء الذين يعبدون الله ولن يرفع في وجههم سلاح يقاتل فقط من يحمل السلاح ليصد عن نشر دين الله.

والجيش قبل أن يدخل المعركة يرسل رسله إلى هؤلاء المحاربين يدعوهم إلى واحدة من ثلاث.

١- إما الإسلام ويترك المسلمون لهم ديارهم وأموالهم.

٢- وإما الجزية. وكفى الله المؤمنين القتال.

٣- وإما إزاحة هذا الركام المتعفن من طريق الإسلام – ونقول الركام المتعفنّ لأنهم تركوا عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يملك

(١) سورة الممتحنة: الآية ٨.

الحياة والموت وتوجهوا بعبادتهم إلى الشجر والحجر والكواكب والنجوم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

وهذه المبادئ السامية التي تمسك بها قادة المسلمين وجنودهم بهرت قواد الروم وأمراء جيشهم مما حمل أحدهم واسمه «جرجه» على أن يدعو خالداً للبروز إليه في إحدى فترات الراحة بين القتال وحين يلتقيان، يوجه القائد الروماني حديثه إلى خالد قائلاً: يا خالد: أصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب...؟

«هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاك إياه، فلا تسله على أحد إلا هزمته..؟

قال خالد: لا.

قال الرجل: فبم سميت سيف الله..؟

قال خالد: إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه، ومنا من كذبه وكنت فيمن كذبه حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسول الله فبايعناه.

فدعا لي رسول الله. وقال لي: أنت سيف من سيوف الله، فهكذا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

سميت سيف الله.

قال القائد الروماني: وإلام تدعون..؟

قال خالد: إلى توحيد الله وإلى الإسلام.

قال: هل لمن يدخل في الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر..؟

قال خالد: نعم وأفضل.

قال الرجل: كيف وقد سبقتموه..؟

قال خالد: لقد عشنا مع رسول الله ﷺ، ورأينا آياته ومعجزاته. وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم في يسر.

أما أنتم يا من لا تروه ولا تسمعوه ثم آمنتم بالغيب، فإن أجركم أجزل وأكبر إذا صدقتم الله سرائركم ونواياكم».

عندها صاح القائد الروماني. وقد دفع جواده إلى ناحية خالد ووقف بجواره: علمني الإسلام يا خالد [١].

أليست هذه من معجزات الإسلام والآيات البينات التي جاء بها من عند الله تعالى: وإلا كيف استطاع هؤلاء رعاة الإبل والغنم في فترة وجيزة من عمر الزمن أن يطوقوا أرباع الكرة الأرضية التي تم فيها نشر كتاب الله تعالى ودان أهلها بالإسلام. حتى قال شاعرهم:

---

(١) راجع رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص ٢٩٩.

كانوا رُعَاةَ جِمَالٍ قَبلَ نَهْضِتِهِمْ وبعدها مَلَؤُا الآفاقَ تَمْدِيناً
لو كبرت بآفاق الصين مئذنةٌ سمعت في الغرب تَهْلِيلَ المصلينا

ألا نعود إلى كتاب الله المعجز ونتدبر آياته في الكون العريض. وفي البحار والمحيطات. وفي الآفاق البعيدة حتى يتحقق لنا ما وعدنا الله تعالى به؟ من قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (١).

هذا وعد الله لنا الذي أنزله في كتابه. وقد تم لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن أن وصلوا إلى القمر وهو طبق من الأطباق. فهل يتحقق على أيدي المسلمين الوصول إلى الأطباق السبعة التي ذكرها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٢).

فمتى يتوجه علماء المسلمين إلى الأطباق السبعة تحقيقاً لوعد الله لهم ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾. ثم أشارَ اللهُ سبحانهُ وتعالى على وسيلة العروج إلى هذه الأطباق بقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الانشقاق: الآيتان ١٨-١٩.

(٢) سورة نوح: الآيتان ١٥-١٦.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

إن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالعروج والنفوذ إلى السماوات العليا بقوله: ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ ووسيلة ذلك هو العلم – والعلم وحده – الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بتعلمه والتنقيب عنه – والوصول إلى حقائقه وبنوده ولن يخرج ذلك عن كتاب الله الذي قال فيه منزله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (١) فهل يتحقق ذلك؟ وهل يتحقق نبوءة الفيلسوف «برناردشو» الذي تنبأ فقال: إن دين محمد سينتشر في أوروبا في المستقبل بعد أن أصبح مقبولاً لديها اليوم ليملأ الفراغ الذي عجزت المسيحية واليهودية عن ملئه في عصر العلم.

******

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

الفصل الثالث

كتاب الله شامل لكل جوانب الحياة ليتم التنسيق بين الكون وشئون الحياة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ (١).

إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان ليكون خليفته في الأرض هذا الإنسان جمع بين المادة والروح. فهو جسم مادي وروح شفافة جسد مشدود إلى الأرض وروح تتطلع إلى الأفق الأعلى. جسد له مجموعة من الدوافع والشهوات والرغبات.

وروح تسمو به نحو الملأ الأعلى بعيداً عن الأرض وتكالب أتباعها. جسم له كل مطالب الحيوان من مطعم ونهم وشهوة. وروح له تتصف بشفافية الملائكة الذين يسبحون الخالق ولا يفترون ويقدسون خالق الأكوان ولا يملون. ونفس مزدوجة تجمع بين الخير والشر. والهدى والضلال والصلاح والإفساد والسلم والحرب.

---

(١) سورة السجدة: الآيات ٦-٩.

هـذا الإنسـان الذي خلقه الله وجعله في أحسن تقويم. وجعل له السمع والأبصـار والأفـئدة. وألهمـه الفجور والتقوى، وهداه إلى الطريقين وزوده الله سـبحانه وتعـالى «بـالمعدة» والـتي تمـثل أعظـم معمـل كيمـيائي ينـتج المـواد «أوتوماتيكـياً» أكـثر ممـا ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان، «فجهاز المعدة» يقـوم بتحلـيل مـا يتناوله من أطعمة على اختلاف أنواعها وتجهيزها من جديد ثـم يقـوم بتصـنيعها وتوريدهـا باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا داخل الجسـم حسـب احتـياج كـل مـنها وتخصصـاتها في تكون العظام أو اللحم أو الشعر أو العينين الخ.

كمـا يحتوى جهاز المعدة على جيش دفاعي لمهاجمة الجراثيم المعادية وغير ذلـك من تنظيمات رائعة. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [1] . فإذا تركنا المعدة وتوجهنا إلى أذن الإنسان نراها تمتاز بمواصفات دقيقة أدهشت العلماء.

فالأذن عضو بالغ الحساسية يقوم بتحليل الأمواج الصوتية بمنتهى الدقة. ويـنقله إلى المـخ في صـورة تـيار كهـربي يسـري في العصب السمعي إلى مركز خاص في المخ عندها يشعر الإنسان بكل صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الأشجار.

---

(١) سورة التين: الآية ٤.

وهـذه الأذن لها طاقة محددة يتراوح ترددها في الثانية الواحدة من ٢٠ إلى ٢٠٠٠٠ ذبذبة حتى ينعم الإنسان بالهدوء ولا يسمع ما هو مزعج فوق سمعه أو أقـل فيحـتار في سمعـه. ولولا هذا التوازن الذي وضعه الله سبحانه وتعالى في ذبذبـة الصـوت في آذانـنا لتحولـت الحـياة إلى جحيم لا يطاق فسبحان الله العظـيم الـذي خلـق فسـوى والـذي قـدر فهدى وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة.

أمـا العـين فهي بالغة التعقيد تتكون من عدسة تقوم بتكوين الصور على الشـبكية بمسـاعدة عضـلات العين التي تنظم تلقائياً انحناء العدسة لتغيير قوتها حسـب بعد المنظر وقربه. وينفذ الضوء للعين من خلال بقعة صغيرة في مقدمة العـين تسـمى القرنـية وتقع حدقة العين فيما بين القرنية والعدسة ويقع بينهما ثقـب يسمى بإنسان العين. وهو يتسع ويضيق بطريقة تلقائية وفقاً لشدة الضوء الذي تتعرض له العين.

وتـتكون الشـبكة الداخلـية للعين من أعواد ومخروطات يصل عددها إلى ١٢٥ مليون عود.

ولا يتسـع المجـال لذكـر ملايـين التنظـيمات والتوافقات الرائعة في جسم الإنسان والتي تعجز وعجزت عن الإلمام به عقول العلماء والأطباء حتى وقتنا الـراهن الـذي اتسـعت فـيه مجـالات العـلم وآلاته البديعة التي هي فوق طاقة

البشر. وصدق الله العظيم: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] وقوله أيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٢].

ورغم أن العلم قد تعرف على التركيب المادي لجسم الإنسان بعناصره ومركباته – وذلك بالتحليل الكيميائي فإن العلم لم ولن يصل إلى سر الحياة – أو الجانب الآخر من الإنسان وهو الروح الذي قال عنه خالقه ومبدعه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[٣].

(١) سورة النحل : الآية ٨.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

كوكب الأرض وإحاطته بالعناية الإلهية

حفظ الحياة

هذا الكوكب الأرضي المترامي الأطراف يعد جزءاً ضئيلاً من كون الله سبحانه وتعالى الذي لا يحد.

ولقد شاءت الإرادة الإلهية أن يكون هذا الكوكب مقراً لخليفة الله. ولأجل ذلك سَخَّرَ اللهُ سبحانهُ وتَعَالَى كل ما فيه وما عليه ليكون في خدمة الإنسان حتى تستمر حياته على هذا الكوكب. فيقوم بتعميره. والسير في فجاجه. واستخراج كنوزه والتسبيح لخالقه. وشكره على نعمائه. إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ولقد أثبتت بحوث العلماء الذين قاموا بها أن كل جزيئة من جزيئات هذا الكون خلقت بقدر، ووضعت بميزان دقيق، فليس للصدفة وضع ولا للعجلة مكان. ومن هنا جاء قوله تعالى في كتابه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١).

الموقنون الذين رأوا إبداع الخالق العظيم فسجدوا إجلالاً وتعظيماً للذي: ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾

(١) سورة الذاريات : الآية ٢٠.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١).

يقول الدكتور منصور حسب الله: تكونت الأرض من كتلة معينة. وبحجم مقدر عندما انفصلت من كوكب الشمس.

فلو كانت هذه الكتلة المنفصلة من جرم الشمس صغيرة مثل كوكب القمر، أو كان قطرها أقل من قطرها الحالي لعجزت الأرض عن احتفاظها بالغلافين الجوي الذي يختزن الأكسجين ويحميها من حرارة الشمس المحرقة. ومن غلافها المائي والذي يمثل ثلاثة أرباع حجمها. نقول ولو كان حجمها أصغر عليه لصارت الحرارة شديدة قوية. ولأبادت كل ما على سطح الأرض من مخلوقات. أما لو كانت ضعف قطرها الحالي لأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما عليه الآن.

عندها يزداد الضغط الجوي إلى الضعف مما يؤثر على الحياة والأحياء ويكون له أسوأ الأثر في عدم استمرارية الحياة (٢).

ويقرر العلماء أن الأرض تبعد عن كوكب الشمس مسافة تقدر بـ٩٣ مليون ميل وهذه المسافة ثابتة عبر بلايين السنين، بحيث تستقبل الأرض من إشعاع الشمس ما يكفي لنور الحياة والأحياء فيها.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان: ٩-١٠.

(٢) راجع الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور محمد حسب الله ص ٤٠، ٤١ بتصرف.

ويقررون أيضاً: أن الأرض لو ابتعدت عن الشمس إلى ضعف بعدها الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

إن العليم القدير - خالق الأرض والسماء قدر دوران الكرة الأرضية حول نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة. ولو أكملت الأرض هذه الدورة في مدة أطول لطال نهارنا وطال ليلنا ولهلك كل حي على أرضها من شدة الحر وشدة البرد. فسبحان العليم القدير الذي قدر فسوى، وخلق فأبدع وحكم في ملكه بأن ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

يقول علماء الأحياء: إن كمية الأكسجين الثابتة على الكرة الأرضية هي الكمية التي تفي تماماً باحتياجات الحياة على الأرض. ولو زاد الأكسجين عن هذا القدر عما قدره الله تعالى - لأصبح كل ما على هذا الكوكب الأرضي - عرضة للاشتعال والاحتراق. ولو نقص الأكسجين عن هذه النسبة لتعذر التنفس وبالتالي تختفي الحياة جملة من على هذا الكوكب.

إن هذا سيحدث ولكن في الوقت الذي حدده رب الكائنات والذي لا يعلمه إلا الله وإن كان قد أشار بحدوثه عندما يريد بقوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى

(١) سورة يس: الآية ٤٠.

﴿ ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ ﴾ (١) وقوله أيضاً: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ (٢).

ويقول علماء الجيولوجيا: لو كان سمك القشرة الأرضية اكبر مما هي عليه الآن بضعة أقدام لحدث امتصاص لغاز ثاني أكسيد الكربون والأكسجين الموجودين في الجو بواسطة هذه الزيادة ولاستحال إنبات النبات أو سموق الأشجار وكل ما يحتاجه الإنسان والحيوان.

ويقولون أيضاً: لو كانت الأرض كرة ملساء دون منخفضات أو تعاريج لغمرتها المياه الموجودة بغلاف مائي سمكه ميلان. ولو حدث أن الجليد الذي يغطي سلاسل الجبال والجزر الموجودة عند القطبين قد انصهر وذاب فإن مستوى مياه البحار والمحيطات في العالم كله سوف يرتفع في هذه الحالة بنحو ٦٥ متراً وغطى الكثير من المدن الآهلة بالسكان واهلك الحرث والنسل.

إن هذا حادث وواقع لا محالة. ولكن متى.....؟؟ عندما يتحقق وعد الله بقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣) نعم يا رب هذا قولك ووعدك ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٣) سورة الكهف: الآية ٤٧.

(٤) سورة المعارج: الآيتان ٨-٩.

يقول العلماء: ومن الجدير بالذكر أن نسبة عنصر «اليورانيوم» القابل للانشطار والانفجار في باطن الأرض لا يزيد على ٠,٧١٪ بينما «اليورانيوم» الخام الموجود في الأرض غير القابل للانشطار يكون ٩٩,٢٨٪ ولولا هذا التقدير الإلهي لهذا الكوكب لتفجرت الأرض تفجيراً ذرياً طبيعياً. ولكن كل ذلك أجّله العليم القدير إلى يوم موعود اليوم الذي يحدث فيه ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾[١].

ويقرر العلماء أن الخواص التي يقوم بها «الأكسجين» في الجو علاوة على أهميته في التنفس امتصاص الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس، ويحولها إلى غاز مطهر هو «الأوزون» وبذلك يحمينا من أضرار هذه الأشعة الخطيرة والتي لا يصل منها على الأرض سوى القدر اللازم لنمو الحياة. ولولا هذا لاختفت الحياة فوق سطح الأرض.

ألا يدل ذلك كله على لطف الله بعباده وأنه هو الرحيم الودود الذي قال في كتابه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٢].

إنها تشمل العباد القانتين. وأتباع إبليس العاصين. إنها تشمل الحيوان والنبات، تشمل الصغير والكبير. لأنهم خلق الله وعبيده. ولهذا قال في محكم كتابه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾[٣]

---

(١) سورة التكوير: الآيات ١-٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٦.

وقوله أيضاً بمناسبة الذين كذبوا وعصوا رسوله: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ (١).

وإذا كان ذلك كذلك فالله سبحانه وتعالى قد جعل للماء خاصية فريدة من نوعها وذلك أنه يمتاز بأن كثافته تقل عندما يتجمد بخلاف الخواص الطبيعية لسائر المواد. ولهذه الخاصية – التي مد الله سبحانه وتعالى الماء بها – أهمية كبرى بالنسبة للحياة إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص في القاع ويقتل ويجمد كل الأحياء الموجودة من اسماك وخلافه.

هذه بعض المتوافقات والتنظيمات التي أوجدها الله سبحانه وتعالى على الكرة الأرضية ولولا ذلك لصارت مثل الكواكب الأخرى خالية من الحياة والأحياء والنباتات والماء. فسبحان القادر المبدع ونهتف من أعماقنا وكل ذرة من ذراتنا وكل خلية من خلايا أجسامنا تهتف معنا قائله إنه نظام ولابد للنظام من منظم و أنه مقصود لذلك ولا بد للقصد من قاصد مريد، وأنه وجود متكامل دقيق ومنظم ولابد للوجود من موجد، وأنه إبداع فوق طاقة كل المخلوقات ولابد للإبداع من مبدع. سبحانه وتعالى له الملك وله الحكم وهو على كل شيء قدير ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

الباب الثاني
نشأة الكون ونظرية الانفجار الكبير بين القدرة والإبداع والاكتشافات العلمية

الكون كتاب الله المفتوح والقرآن كتاب الله المقروء

الفصل الأول

نشأة الكون والانفجار الكبير

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

سورة فصلت الآيات ٩-١٢.

نشأة الكون

تمهيد

الإنسان خليفة الله في أرضه من يوم أن ظهر على سطح الكرة الأرضية أخذ يبحث عن نشأة الكون، ونظام الحركة فيه.

ومن هذا المنطلق حاولت البشرية أن تضع يدها على حقيقة هذا الكون اللامتناهي حتى إذا كان العصر الإغريقي ظهرت في بلاد اليونان المدرسة الفلسفية الطبيعية وعني أصحابها بدراسة الكون ومعرفة المادة الأولية التي نشأ عنها.

وكان من رجالات هذه المدرسة «طاليس» [١] الذي أعلن أن الماء هو المادة الأولى التي نشأ عنها الكون. في حين أن رأى «انكسيمانس» [٢] أنها الهواء. واعتقد «هيراقليطس» أنها النار. النار التي هي مصدر الطاقات.

أما «انبادوقليس» [٣] فقد عدل عن مبدأ أو عنصر واحد لأصل الكون. ونادى بالعناصر الأربعة مجتمعة وهي النار، الهواء، التراب، والماء.

ومن القرن الخامس إلى القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت في بلاد اليونان

---

(١) أحد الحكماء السبعة عند اليونان أرجع الأشياء كلها إلى عنصر الماء، ت ٩٢٦ق.م.

(٢) أحد علماء اليونان، ت ٩٢٤ق.م.

(٣) فيلسوف يوناني، ت ٤٣٥ق.م.

أيضاً مدرسة التصورات العقلية. وكان أظهر علمائها «سقراط» [١] و«أفلاطون» [٢] و «أرسطو» [٣].

وقد حكم «سقراط العقل في أفعال الإنسان وسلوكياته»، ونادى بأن الفضيلة علم ووضع القاعدة المعروفة: «أعرف نفسك بنفسك».

أما «أفلاطون» - أحد تلاميذ سقراط - فقد ربط مهمة الإنسان بالمعرفة وعرفه بأنه «الإنسان العارف» لأن حبه للاستطلاع والمعرفة يدفعان إلى التأمل والتبصر. ثم نادى بعالمين، نادى «أفلاطون» بعالم الحقيقة وهو عالم المثل، وعالم الأشباح وهو عالم المحسوسات. ثم أضاف إليهما عالماً آخر وهو عالم «المادة الأزلية» التي وجد منها هذا الكون. هذا ما توصل إليه علماء اليونان في بحثهم عن نشأة الكون.

ولكن بعد التقدم التدريجي في علوم الفلك وتطورها المستمر لزيادة المعرفة عن أسرار هذا الكون. أخذت في الانتشار أفكار العالم الفلكي الكبير «كوبر» [٤] ١٤٧٣-١٥٤٣م.

---

(١) فيلسوف يوناني من أثينا لم يترك أثراً مكتوباً لكن سجل حياته تلميذه أفلاطون، ت ٣٩٩ ق. م.

(٢) فيلسوف يوناني دوّن أفكاره على شكل محاورات، أشهر محاوراته (الجمهورية) (والمدينة الفاضلة)، ت عام ٣٤٧ق.م.

(٣) فيلسوف يوناني تتلمذ على أفلاطون. وعلم الاسكندر الأكبر واتباعه سموا بالمشائين وله من المؤلفات «السماء» و «الكون» و «الفساد» و «النفس» ت ٣٢٢ق.م.

(٤) فلكي بولندي واضع نظرية : «دوران الأرض والكواكب حول الشمس». وعلى أساسها بني علم الفلك الحديث، ت عام ١٥٤٣م.

وقد أكد هذا العالم: أن الشمس هي النجم العظيم الحجم، وأكبر أفراد المجموعة الشمسية، ومن ثم يسهل رؤيتها بالعين المجردة على الرغم من عظم طول المسافة بينها وبين كوكب الأرض.

ومن عام ١٥٧١-١٦٣٠م أخذ العالم «كابلر» يعمل على تعديل نظرية «كوبر» وأكد بأن معظم الكواكب يبدأ أهليجياً أو بيضاوي الشكل كما حقق «كابلر» بأن حركة الشمس الظاهرية اليومية ليست سوى نتيجة لحركة الأرض اليومية.

وعندما جاء العالم «جاليليو» [١] واكتشف عام ١٦٠٩م جهاز المنظار الفلكي، اتسعت المعرفة عن الكون والكواكب وتمكن «جاليليو» من تحقيق أفكار «كوبر» النظرية بصورة علمية غير قابلة للشك ومن هنا نستطيع أن نقول: إن القوانين العلمية التي توصل الإنسان إليها من خلال طاقته الفكرية، وما أتيح له من تعلمه من خلال البيئة العلمية التي يعيش فيها هي في الحقيقة أقل من القليل بالنسبة لما أشار إليه القرآن الكريم [٢]. وصدق ربي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٣].

---

(١) عالم فلك إيطالي ترك علم الطب وبحث في علم الطبيعة، اخترع الميزان المائي، صنع أول منظار فلكي ١٦٠٩م، ت عام ١٦٤٣م.

(٢) راجع تطور الحياة الفكرية العامة. يحيى هويدي من كتاب تطور الفكر الفلسفي من ص ١٣-١٢٦، وكتاب من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د. حسن أبو العينين جـ١ ص ٢٢٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

نشأة الكون ونظرية الانفجار الكبير

الله سبحانه وتعالى يطلب من عباده ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ النظر والتدبر لمعرفة نشأة هذا الكون اللامحدود، حتى يدركوا قدرة الخالق المبدع، الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[1].

يقول الله سبحانه وتعالى ذلك لأن السير في الأرض – كل الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة، التي لم تألفها العين ولم يلهمها القلب بعد. والهدف في النهاية – معرفة كيفية نشأة الحياة الأولى، وذلك عن طريق بعض الاكتشافات والحفريات التي يتتبعها بعض العلماء ليعرفوا منها خط الحياة.

كيف نشأت...؟

وكيف انتشرت....؟

وكيف ارتقت.....؟

وإن كانوا – حتى عصرنا الراهن – لم يدركوا إلا القليل من سر الحياة ما هي...؟ ومن أين جاءت إلى الأرض..؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي..؟

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

لهذا نرى أن هذه الآية توجيه وأمر من الله تعالى لعباده للبحث عن نشأة الحياة الأولى: كيف بدأ الله الحياة وأعادها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة، وما يحسبونه من قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن. بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة. وإذا كان الأمر كذلك فماذا عن الانفجار الكبير...؟

نظرية الانفجار الكبير

نرى أن هذه النظرية تكاد تمثل اتفاقاً عاماً بين معظم علماء الطبيعة والفلك وخاصة بعد الاكتشاف العلمي لظاهرة تمدد الكون وظاهرة إشعاع الخلفية الكونية ويطيب لنا أن نقدم ما توصل إليه العالمان الجليلان «جورج ليمتر و جامو». بالرغم من الفارق الزمني بينهما.

ففي عام ١٩٣١م أعلن العالم الفلكي «جورج ليمتر» أن الكون كان في الأصل كتلة عظمى متماسكة عالية الكثافة (١٠٠ مليون طن لكل سنتمتر مكعب).

وكانت هذه الكتلة ساخنة جداً تصل حرارتها إلى بلايين البلايين من الدرجات وقطرها حوالي ٢٠٠ مليون ميل وتسمى البيضة الكونية، وأن هذه البيضة انفجرت عند نشأة الكون انفجاراً هائلاً فتكونت بذلك نوايا النجوم التي تبعثرت بسرعة عالية في جميع الاتجاهات.

ثم تجمعت مجاميع من النجوم عن طريق الجاذبية فتكونت المجرات التي مازالت تجرى في الفضاء الكوني. وإن هذه المراحل استغرقت زمناً يتراوح بين ٢٠ إلى ٦٠ بليون سنة [١].

هذا ما قاله عالم الفلك جورج ليمتر عام ١٩٣١م وبعد سبعة عشر عاماً من هذا التاريخ أعلن جامو قصة نشأة الكون والذي يقول عنه إنه بدأ بفضاء مملوء بالبروتونات التي انضمت إلى بعضها البعض بالجاذبية مكونة غازاً كثيفاً أو دخاناً لدرجة أتاحت حدوث عمليات الاندماج النووي لمختلف العناصر، بما في ذلك العناصر الثقيلة المشعة مع وفرة في الحديد والأكسجين. وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينفجر، وتكثفت سحب من هذا الدخان في أماكن متفرقة مكونة نجوماً منفردة ظلت تتناثر من أثر الانفجار.

وعندما هبطت حرارتها تغلبت جاذبيتها المتبادلة فتجمعت على هيئة مجموعات تسمى المجرات ظلت أيضاً تتناثر وتتباعد دون أن تتوقف إلى الآن...؟ ولقد أدت حوادث الاصطدام بين النجوم إلى تكوين العديد من المجموعات الكوكبية الباردة مثل أرضنا [٢].

ونحن نستيقن هذه الحقيقة التي ذكرها «جامو» لمجرد ورودها في كتاب ربنا بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا

(١) راجع الكون والإعجاز العلمي للقرآن. د. منصور حسب الله ص ٣٢٤.

(٢) راجع من الإعجاز العلمي مصدر سابق ص ٢١٩.

رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١).

وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض، وتقبل النظريات الفلكية لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية. ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة وقصارى ما يقال.

إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لآيات القرآن الكريم السابق عليها بأجيال. ويقول كتاب ربنا: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (٢).

ويقول العالم «جامو» في نظريته: بدأ الكون ينفجر، وتكثفت سحب من هذا الدخان في أماكن متفرقة مكونة نجوماً منفردة ظلت تتناثر وتتباعد من أثر الانفجار.

ونقول: إن هناك اعتقاداً أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى «السديم» وهذا السديم غاز.. دخان. وهو ما تبقى من خلق النجوم.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٣٠-٣١.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

إن نظرية الخلق تقول: إن المجرة كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت النجوم، وبقيت لها بقية، ومن هذه البقية كانت السدم ولا يزال من هذه البقية منتشراً في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار يساوي ما تكونت منه النجوم.

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (١).

أطوار خلق الكون:

يكاد يكون اتفاق بين العلماء أن الكون قديم خلقه وتشكيله على مراحل امتدت على فترات زمنية طويلة وقف العلم عاجزاً عن تحديد مدتها ولك ما توصل إليه تحديد تكون النظام الشمسي الذي تتبع له الأرض بحوالي ٤,٥ بلايين سنة. وأن الأرض عبر هذه المدة قد مرت بأربعة حقب جيولوجية. أوضحتها الدراسات الحفرية (٢).

ويطيب لنا أن نستعرض آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن أطوار ومراحل خلق الكون. وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

(٢) الكون والإعجاز العلمي للقرآن، مصدر سابق ص ٣٢٥ بتصرف.

يقول الله سبحانه جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (١).

فيرى العالم المفسر الكبير ابن كثير في تساؤله: هل كان يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الذهان؟ أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام ابن حنبل..؟ (٢).

ويقول ابن الجوزي قال ابن عباس مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة وبه قال مجاهد والضحاك. ولو قال إنها كأيام الدنيا، كان قوله بعيداً من وجهين:

أحدهما: خلاف الآثار.

والثاني: أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (٣). فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة (٤).

ونقول كلمة اليوم تأتي في القرآن بعدة معان منها:

١- النهار: وذلك في قوله تعالى في إهلاك قوم عاد بالريح العاتية: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٢٩.

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

(٤) راجع زاد المسير جـ٣ ص ٢١١-٢١٢.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٧.

٢- وقوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ ﴾ (١).

٣- وتأتي بمعنى طور من أطوار الخلق، والتكوين، والتدبير والحركة مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢).

يقول صاحب كتاب الكون: فاليوم قد يكون كوراً قد يمتد عشرات الآلاف من السنين (٣).

«والزمن في القرآن الكريم نسبي وليس مطلقاً. وهذا يتفق مع النظرية العلمية الحديثة التي اكتشفها» في النظرية النسبة الخاصة والتعبير القرآني بستة أيام (أطوار) عن الأحقاب الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض قد ورد في أطوار ستة وصلتها الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى في قوله:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا

(١) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٧.

(٣) الكون في الإعجاز العلمي في القرآن ص ٣٢٧.

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (١).

يقول صاحب الظلال، وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور حتى استقرت وصلبت قشرتها، وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها. وهذه قد استغرقت فيما تقول النظريات التي بين أيدينا – نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا (٢).

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور، وتقدير عمر الأرض بواسطتها. ونحن في دراسة القرآن لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية. فهي في أصلها ليست كذلك. وإن هي إلا نظريات قابلة للتعديل فنحن لا نحمل القرآن عليها، وإنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقارباً، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بغير تعجل.

فنأخذ من هذه أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب مدلول للنص القرآني (٣).

ونرى أن ما قاله صاحب الظلال يعبر عن وجهة رجالات التفسير، وما ينادي به علماء الطبيعة والفلك ونقول العلماء الذين عناهم الله سبحانه

---

(١) سورة فصلت: الآيات ٩-١٢.

(٢) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٥ ص ٣١١.

(٣) المصدر السابق جـ٥ ص ٣١٠-٣١١.

وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (١).

والآية الأولى من النص القرآني: أشارت إلى طوري الانفصال من الشمس وتجمد القشرة الأرضية بالبرودة التدريجية. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾. أشارت إلى طور ثالث يعبر عن تكوين الجبال الرسوبية على شواطئ البحار بقوله: ﴿ فَوْقِهَا ﴾ وهذا يستتبع خلق الأنهار التي تحمل الرواسب وتنتشر البركات بمياهها اللازمة للحياة بجميع أشكالها.

وأما الجبال التي تمتد جذورها في القشرة الأرضية فقد تكون مع القشرة أثناء برودتها في الطور الثاني.

والدليل على ذلك مع الأطوار في قوله تعالى: ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

إشارة إلى أن خلق السماوات كان مصاحباً لخلق الأرض. والآيات القرآنية لا تحدد ترتيباً في خلقها مثل الآية التي معنا فإنها تشير لخلق الأرض وكذلك آية البقرة ٢٩ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٢).

وآيات أخرى تشير إلى خلق السماوات أولاً كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٩.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٢] ثم قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [٣].

وهذان يومان أو طوران تم فيهما خلق سبع سماوات فيصبح المجموع الكلي للأيام أو الأطوار الخاصة بخلق الكون ستة أطوار.

أقوال العلماء في السماوات السبع....

يقول صاحب الجواهر ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [٤] أي نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة، ومن هذا يفهم كيف قال ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ للدلالة على أن حركة الإتيان منها مصطحبة [٥].

******

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) سورة يونس: الآية ٣.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٥) راجع الجواهر في تفسير القرآن الكريم جـ٩ ص ٩١.

الفصل الثاني
الجبال ودورها الكبير في إقامة التوازن بين أطراف الأرض

تمهيد

الجبال المنصوبة، والجبال الراسية، والجبال الأوتاد، والجبال التي تمر مر السحاب، والجبال الشامخات. هذه الجبال جميعها تسبح لخالقها وتسجد له قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ (١).

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الجبال كل الجبال ملجأ وملاذاً، وأنياً وصاحباً لخليفته في الأرض حيث يشعر بجوارها بالأمن والسكينة، والراحة والاطمئنان والنفس البشرية عندما تكون قريبة من الجبل تتجه بفطرتها إلى الله تعالى وتشعر أنها قريبة منه، فتلجأ إليه وتطلب منه العون والهداية، تنفيذاً لأمره تعالى لعباده بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢).

يفعل الإنسان ذلك لأنه بجوار الجبال يكون بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها قريباً من القيم العليا ونعيمها.

لهذا لم تكن مصادفة أن يتجه رسول البشرية، وخاتم الأنبياء ﷺ إلى غار حراء في جبل ثور، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد حتى نزل جبريل الأمين – عليه السلام – بأمر من ربه إليه بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾

---

(١) سورة ص: الآية ١٨.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [١].

وكان هذا إيذاناً بزوال دولة الأصنام والأوثان، ودعوة البشرية قاطبة إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد. وتخليصها من عبودية الأفراد إلى عبادة خالق الأرض والسماوات.

كيف تكونت الجبال..؟

حدث الانفجار الكبير - واستوى مالك الملك على السماء ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [٢].

يقول العلماء: إن الجبال تكونت من صخور صنعتها تحركات تحدث بالقشرة الأرضية نتيجة الضغوط الهائلة التي نشأت في طبقات هذه القشرة في شتى الاتجاهات. وهذه الضغوط تنشأ غالباً من تحول الطاقة الحرارية المختزنة في باطن الأرض إلى طاقة ميكانيكية تؤدي بدورها إلى أحد الاحتمالين:

أ- إحداث [٣] كسر بالقشرة فتحدث فتحات تصل ما بين جوف الأرض وسطحها مع غازات وأبخرة من فوهات تعرف بالبراكين نظراً لارتفاع الضغط في باطن الأرض عن خارجها.

ب- إحداث طيات ينتج عنها انحناء القشرة في تحدب إلى أعلى في مكان ما يصاحبه تقعر في انخفاض جزء آخر من القشرة إلى أسفل ولا شك أن هذه

---

(١) سورة العلق: الآيات ١-٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

(٣) راجع الكون والإعجاز العلمي للقرآن ص ١٨٢.

الضغوط التي تسمح بإنتاج نتوءات على هيئة جبال أو هضاب ترتفع مثلاً لعدة كيلومترات فوق مساحات قد تبلغ آلاف الكيلو مترات المربعة.

ضغوط قوية عارمة ذات طاقة جبارة تفوق الوصف والخيال، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ (٢).

والجبال كما تكون على سطح الأرض تكون أيضاً في المحيطات. كما في حالة زيادة مساحة اليابسة في عرض البحار والمحيطات، بواسطة جزر مادتها من الصخر الناري، والمعروفة بالجزر البركانية مثل جزائر «هاواي» في المحيط الهادي. وبعض الجبال الموجودة في البحار قد تصل قممها إلى سطح الماء فتكون الجزر، وقد تكون رؤوس براكين ملأت رواسب البحر فوهاتها (٣) ولقد صدق الذي أخبر عنه ربه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ (٤). في قوله: «إن تحت البحر نار» (٥).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ ﴾ (٦) قيل: إنه البحر المحيط

---

(١) سورة النازعات: الآيات ٣٠-٣٢.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣.

(٣) الكون والأعجاز العلمي في القرآن ص ١٨٢.

(٤) سورة النجم: الآية ٣.

(٥) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد رقم ٩.

(٦) سورة الواقعة: الآية ٤٣.

بالدنيا، وروى يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ «البحر هو جهنم» [١] ثم تلا ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [٢].

وبهذا فإن هذه الجزر والجبال النارية الموجودة في عرض البحر كانت يوماً قاعاً للمحيطات ثم رفعها الله بإحداث طيات بالضغط من باطن القاع حتى ظهرت للعيان زيادة في اليابسة في عرض البحر وبهذا وضح المقصود من الأرض في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ [٣].

فعلينا أن نتأمل تلك الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء في القرن العشرين والتي سبقهم القرآن إليها وأشار إليها منذ أربعة عشر قرناً. فسبحان الذي هدى العلماء إلى ذلك وأرشدهم إلى كشف هذه العلوم في كون الله تعالى بعد أن أشار إليها في كتابه قبل ذلك.

الجبال ودورها في مد الكائنات بالماء

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [٤] هذه الآية تبرز لنا معجزة علمية لأنها تربط بين الجبال العالية وبين الماء العذب في كشوف العلماء للثلج الذي يكلل رؤوس الجبال – عندما تكون درجة الحرارة في قممها تحت الصفر، فتظهر الثلوج الدائمة على ارتفاع

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند جـ٤ ص ٢٢٣ حلبي.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩. وراجع تفسير القرطبي جـ١٠ ص ٣٩٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ١٩.

(٤) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

نحو ٢ , ١ كيلو متر على جبال «كليمنجارو» بأواسط أفريقيا.

ويكون لتراكم الثلج الدائم فوق قمم الجبال المرتفعة الفضل في تغذية الأنهار بالماء العذب نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا من الثلج على السفلي منه.

ولن تنفد هذه الثلوج من على قمم الجبال لاستمرار ذوبانها، لأنها كما تسيل باستمرار تتجدد أيضاً باستمرار نتيجة لتكثف بخار الماء الموجود دائماً في الجو المحيط بهذه القمم.

ولولا إرادة الله تعالى في تجميد الثلوج على قمم الجبال لجفت الأنهار إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها [١]. لا لن يتم ذلك مطلقاً والله سبحانه وتعالى قرر وحكم بقوله: ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ [٢]. وقوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [٣].

وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة. تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة: ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ فيحس القارئ يد الجبار تفتح ﴿ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ... بهذا اللفظ وبهذا الجمع. ﴿ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾.. غزير متوال وبالقوة ذاتها بالحركة نفسها ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾.. وهو تعبير

---

(١) راجع الكون الإعجاز العلمي مصدر سابق.

(٢) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

(٣) سورة القمر: الآيتان ١١-١٢.

يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيوناً.

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض.. ﴿ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾... الْتَقَيَا على أمرٍ مُقَدَّر، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر. طائعان للأمر، محققان للقدر.

الجبال بين العلم والدين

الجبل جزء من سطح الأرض يرتفع عما يجاوره كثيراً، أو هو جزء لا يتجزأ من قشرة الأرض الصلبة، له جذوره العميقة فيها.

وللجبال وظائف كثيرة، ومن أهمها أنها تعمل على تماسك طبقات القشرة الأرضية الصلبة المتراصة بعضها فوق بعض، كما تمسك الأوتاد الخيمة وتشدها قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧ ﴾ [1].

والعلم الحديث يؤكد أن الجبال «مساكات» للقارات في الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الأرضية الصلبة، ولولا جذور هذه الجبال المنغرسة في طبقات «السيما» لطفت القشرة المكسرة إلى قارات وانعدام توازنها وثباتها فالجبال هي التي تحفظ توازن القشرة الأرضية بإذن الله لأن قشرة الأرض اليابسة في تغير مستمر تحت تأثير عوامل عديدة .

وهذا التغيير يحمل أجزاءها الصاعدة «الجبال» والهابطة «البحار» على عدم الاستقرار، وعدم الاتزان من آن إلى آخر فتحدث هزات القشرة أو هي

---

(١) سورة النبأ: الآيتان ٦-٧.

تتصدع، أو تنفجر منها البراكين. فالجبال ساهمت في جعل الأرض قراراً مستقراً قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ (١).

وهذا القرار قد جهز أحسن تجهيز، لتكون الجبال مصدراً للمنافع ومتعة للإنسان ومراحاً له ولأنعامه قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣ ﴾ (٢).

ولقد اقترن نزول المطر وجريان الأنهار بالجبال الشاهقة الارتفاع قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ ﴾ (٣).

من ذلك أن الأمطار بسقوطها على قممها تتجمد، لأن الحرارة في المرتفعات منخفضة جداً عما هي عليه على سطح البسيطة فتتراكم الثلوج على رؤوس الجبال مدة الشتاء حتى يأتي وقت الصيف فتذيب الشمس جزءاً منها فيسيل إلى السفوح فتتكون منه البحيرات التي تكون المستودع للأنهار العظيمة الضرورية لحفظ حياة الإنسان والحيوان والنبات.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تزود الأنهار دائماً بالمياه وذلك بأن تسلط على الكتل الثلجية الكبيرة عوامل طبيعية تعمل على إذابتها وتحويلها

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٤.

(٢) سورة النازعات: الآيات ٢٧-٣٣.

(٣) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

إلى ماء وبهذه الوسيلة تستمر الحياة على ظهر البسيطة قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (١).

فلولا الماء ما اهتزت السنابل المتموجة، ولولاه ما ارتفعت الأشجار باسقة بثمار شهية، وأزهار متفتحة، ولولاه ما حلقت طيور مرفرفة ولولاه ما تسابقت الأسماك قافزة.

وأخيراً لولا الماء ما وجدت الحياة مطلقاً على ظهر الكرة الأرضية.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ (٢).

والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف درجة صلابتها وشكلها ومدى تعمق جذورها في الأرض. والجبال كذلك تختلف عن بعضها البعض من حيث درجة الرسوخ في الأرض باختلاف درجة صلابة صخورها وكثافتها بالنسبة لطبقة السيما.

وإذا كانت الأوتاد تشكل وتنحت قبل غرسها وتثبيتها في الأرض فالجبال أيضاً كذلك نحتت من المرتفعات القديمة ورسبت طبقة فوق طبقة إلى أخرى حتى زاد وزن الرسوبيات وغاصت في الأرض إلى السيما وتراكمت فوقها كتل وكتل أخرى وانضغطت بالزحف الجانبي للقارات فتشكلت في شكل أوتاد لها جذور في أسفل القشرة.

يقول العالم الجيولوجي الأمريكي «داتون»..

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) سورة النبأ: الآية ٧.

«دوران الأرض لا يؤدي إلى اضطرابها، لأن الجبال والكتل المرتفعة وما بينهما من منخفضات وأودية متوازنة تماماً مع بضعها. وأن الجبال البارزة خفيفة الكثافة ومتعمقة بجذورها كالأوتاد في التكوينات التي ترتكز عليها بمقدار متوازن مع ثقلها ككل ومع ثقل كل منها حسب حجمه وارتفاعه وكثافة صخوره».

وهو بهذا يردد ما قاله القرآن الكريم من ألف وأربعمائة سنة عن دور الجبال في تثبيت قشرة الأرض وتوازنها واستقرارها.

ويقول «هيفورد»:

«إنه على عمق ١٠٠ك.م. تقريباً من سطح الأرض يوجد ما يسمى بخط التوازن وأن المواد التي توجد فوقه متفاوتة الكثافة وبالتالي متفاوتة الارتفاع لتساوي جذورها عند مستوى التوازن».

يقول الدكتور عبدالعليم خضر: وهذا التفاوت في الارتفاع سببه هو اختلاف كثافة المواد المكونة للأشكال فالجبال العالية صممها الخالق العظيم من أقل المواد كثافة حتى لا تطير في الهواء وتضطرب الأرض، أما المناطق الشاطئية فهي أثقلها كثافة وصدق الله العظيم: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (١).

وإذا كان ذلك كذلك فيطيب لنا أن نلقي بعض الأضواء على أنواع الجبال المنتشرة على سطح الكرة الأرضية، وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٥.

أنواع الجبال

صنّف علماء «الجيولوجيا» الجبال التي حوتها الكرة الأرضية إلى مجموعات متعددة الأسماء والصفات، من ذلك:

١- الجبال الإلتوائية الحديثة:

وهذا النوع من الجبال يمثل مناطق من القشرة تكونت من طبقات رسوبية مضغوطة بفعل زحف الكتل القديمة على البحار التي كانت مملوءة بهذه الرواسب الأمر الذي جعلها ترتفع ملتوية عن سطح الأرض.

ولكن عوامل التعرية التي سخرها الخالق الأعظم شقت فيها سبلاً فجاجاً وممرات وأودية فجرت فيها أنهاراً قال تعالى: ﴿ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) . وقال أيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢).

مثال ذلك: جبال الألب في أوروبا التي تقطعها الممرات مثل ممر «جريت سان برنارد» وممرات وفجاج في جبال «الهيملايا». وينطبق مدلول الآية الكريمة على ما فعلته الأنهار في جبال «دراكنزبرج» و «نيوفيلد».

وتدل آيات القرآن الكريم أن قشرة الأرض مثبتة بجبال راسخة شامخة صلبة وقد خلق الله فيها مسالك وأودية وسبلاً فجاجاً وأنهاراً. قال تعالى:

---

(١) سورة النحل: الآية ١٥.

(٢) سورة نوح: الآيتان ١٩-٢٠.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ (١).

وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢).

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣).

وإذا كان لفظ ﴿ أَلْقَىٰ ﴾ يدل على إلقاء شيء من علٍ على شيء آخر فإن العلماء يرون أن الجبال الإلتوائية قد ألقيت فعلاً من علٍ من قمم الجبال القديمة بعد أن نحتتها عوامل التعرية ونقلتها وأرسبتها (٤).

٢- الجبال البركانية:

وتتألف أساساً من المخروطات البركانية، وهي محدودة الانتشار، وتظهر في أجزاء متفرقة من مرتفعات «الأنديز» بأمريكا الجنوبية، والمكسيك، وبمرتفعات «كولومبيا البريطانية».

وأيضاً في جزر هاواي، وجزيرة مدغشقر، وهضبة البحيرات الاستوائية وبراكين حوض البحر الأبيض المتوسط، وبراكين البحر الكاريبي، وبراكين جزيرة أيسلندا.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣١.

(٣) سورة النحل: الآية ١٥.

(٤) راجع المنهج الإيماني للدراسات الكونية للدكتور عبدالعليم عبدالرحمن.

وتعمل عوامل التعرية على تفتيت صخور البركان ونقل المفتتات الصخرية إلى مناطق بعيدة عن المخروطات الجبلية البركانية،ولا تبقى في النهاية سوى أعمدة راسبة بركانية تمثل قصبة البركان ويطلق عليها اسم الهياكل البركانية.

ومن أجمل هذه الهياكل بقايا مخروط بركان «شيبروك» في المكسيك، و «هيكل سانت مايكل» في فرنسا وغير ذلك.

٣- الجبال الصدعية:

وتتكون هذه الجبال بفعل حركات التصدع التي تتعرض لها صخور القشرة الأرضية. ويعد الحوض العظيم في جبال الروكي بغرب الولايات المتحدة أظهر مثال لهذا النوع من الجبال الصدعية التي تحصر بينها أحواضاً صدعية هابطة ومن ثم يطلق الجيولوجيون على المظهر التضاريسي العام للجبال الصدعية اسم «ظاهرات الأحواض والسلاسل الجبلية الصدعية» (١).

وقد قسم علماء الجغرافيا الجبال على اختلاف أشكالها وتباين ضروبها وتنوع أصنافها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جبال صخرية وتحتوي على المعادن المسخرة لمنفعة الإنسان قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (٢).

---

(١) راجع وجه الأرض للدكتور أبو العينين ص . ٤٧٩.

(٢) سورة الجاثية: الآية ١٣.

ومن أمثلة ذلك جبل «سيد» في هضبة نجد وتوجد به رواسب الحديد وصخور الكبريتيد وخامات الزنك والفضة والذهب.

ويوجد الفحم في جبال «البرز» شمال شرق طهران، وفي المنحدرات الشرقية من الجبال في افغانستان، وفي جبال كراب بألبانيا، وتوجد تكوينات فحم البيتومين في جبال «بيشار» وجبل مظاريف وجبل عنتر بجمهورية الجزائر.

وبوجد الفوسفات في جبال المغرب، وتعتبر منطقة خوربيجا واليوسفية من أهم المناطق الحاملة للفوسفات، وفي تونس يوجد الفوسفات في جبل العنق، وفي جبال النصيرية بسوريا وغير ذلك.

ويوجد الحديد بالأناضول وجبالها بتركيا، وفي مرتفعات كدية «الجل» بموريتانيا وفي التل الشمالي بتونس وفي مصر تحتضن جبال البحر الأحمر كميات جيدة من خامات الحديد.

الثاني: الجبال المغطاة بطبقة هشة من وشاح صخري ناعم الحبيبات والتي تستغل في الزراعة والرعي.

وتوجد في جبال عسير والحجاز والطائف، وفي اليمن تكتسي سفوح الجبال والمرتفعات الوسطى بطبقة جيدة من التربة ولقد استغلت في زراعة القمح والشعير والذرة والبن والقات.

وأيضاً في أفريقيا الإسلامية توجد المناطق الجبلية بالإقليم المداري الأفريقي خير مثال لاستغلال سفوح الجبال للزراعة.

الثالث: الجبال صائدة المطر وجامعة للثلوج.

ومن أمثلة ذلك جبال عسير، وجبال هضبة الحبشة، وجبال الأنديز وجبال البحر الأحمر في مصر والسودان وجبال النصيرية ومرتفعات لبنان. لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون للإنسان ليكون خليفته في أرضه قائماً بأمره ومنفذاً لشرعه.

والله سبحانه وتعالى لم يتركه لنفسه، ولكنه أرسل له الرسل والأنبياء للهداية والإرشاد، وسخر له كل ما في هذا الكون قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (١). وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٢).

ومن الأشياء المسخرة الجبال: جبال الحديد والنيكل، جبال النحاس والذهب، جبال الفضة والفسفور. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٣).

وجبال التربة الصالحة للزراعة، والمغطاة بالعشب الكثير والخير الوفير، قال تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.
(٢) سورة لقمان: الآية ٢٠.
(٣) سورة فاطر: الآية ٢٧.
(٤) سورة النازعات: الآيتان ٣٢-٣٣.

وسخر الجبال التي هي معاقد للمياه ومخازن للثلوج ومستودع للبشرية لخزن مياه الأمطار. قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ ﴾ (١).

وإذا كان ذلك كذلك فما هي حقيقة الجبال في منهج القرآن الكريم..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث.

يقول الدكتور عناية الله المشرقي الهندي:

«كان ذلك يوم أحد، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد عليّ، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له:أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم – مثلك – أن يتوجه إلى الكنيسة؟ وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت «ليدي جيمس» في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفسير منهمكاً في أفكاره. وعندما شعر بوجودي، سألني: ماذا كان سؤالك؟، ودون أن ينتظر ردي، بدأ

---

(١) سورة النور: الآية ٤٣.

يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله. وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعشان من خشية الله، وتوقف فجأة. ثم بدأ يقول يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: «إنك لعظيم» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، واشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت، يا عناية الله خان، لماذا اذهب إلى الكنيسة؟» ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: «لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا في عقلي»، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمتحم لي، لقرأتها عليكم، فهز رأسه قائلاً: بكل سرور فقرات عليه الآية التالية:

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (١).

فصرخ اليسر جيمس قائلاً:

ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟! مدهش! وغريب،

(١) سورة فاطر: الآيتان ٢٧-٢٨.

وعجيب جداً!! إن الأمر الذي كشفت عنه كانت لي فيه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمد به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى به من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً:

لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر... مدهش! وغريب، وعجيب جداً [١] !!

وإذا كان ذلك كذلك فما هي حقيقة الجبال في منهج القرآن الكريم..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث.

---

(١) راجع الإسلام يتحدى ص ١٣٣-١٣٤.

الجبال في منهج القرآن الكريم

وقد جاء في القرآن الكريم على وجوه كثيرة:

الأول: شاهد على تعنت الفئة الباغية التي رفضت عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد. وشاهد على دعوة نوح عليه السلام.

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١).

واستجاب الله دعاءه فأرسل عليهم الطوفان.

الطوفان الذي أغرق الأخضر واليابس.

الطوفان الذي طهر الأرض من الشرك والكفر وحطم الأصنام وأغرق البهتان واكتسح الكفر وأهله.

قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢).

الثاني: شاهد على مهارة قوم صالح في النحت والصناعة، وشاهد على

---

(١) سورة نوح: الآيتان ٢٦-٢٧.

(٢) سورة هود: الآيتان ٤٢-٤٣.

تعنتهم وكفرهم وعصيانهم قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١).

إنها صيحة البعث، صيحة الإيمان، صيحة التوحيد، إنها صيحة القوة اقتلعت الشرك وطوحت بالأصنام وأبادت البهتان، وخسفت بالكفر وأهله.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢).

الثالث: شاهد على تكليم الله لموسى عليه السلام ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٣) وشاهد على ضعفه وانهياره أمام تجلي ربه قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾ (٤) ساخت نتوءات الجبل فبدأ موسى بالأرض مدكوكاً وأدركت موسى رهبة الموقف وسرت في كيانه البشري الضعيف.

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾ (٥) مغشياً عليه غائباً عن الوعي.

---

(١) سورة الحجر: الآيتان ٨٢-٨٣.
(٢) سورة هود: الآيتان ٦٦-٦٧.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وثاب إلى نفسه وأدرك مدى طاقته واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (١).

تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك في حال الدنيا.

الرابع: شاهد على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى وجمع الذرات المتناثرة في أركان الأرض قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ (٢) إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (٣).

ورأى إبراهيم – عليه السلام – السر الإلهي يقع بين يديه، السر الذي يقع في كل لحظة ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه إنه سر هبة الحياة.

رأى إبراهيم – عليه السلام – طيوراً فارقتها الحياة وتفرقت أجزاؤها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعياً.

كيف تم ذلك..؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه، ولا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته إلا الله تعالى، لأنه من أمره، وهو لم يشأ أن يحيط البشر بهذا الطرف من علمه، لأنه أكبر منهم وطبيعته غير طبيعتهم ولا حاجة لهم في علمه في أثناء خلافتهم على ظهر البسيطة.

الخامس: شاهد على أن الله رفعه وجعله ظلة على بني إسرائيل عند

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٢) صرهن: قطعهن. قاله ابن عباس، راجع صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، ص١١٧ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

أخذ الميثاق عليهم قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ [١] فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [٢].

جعل الجبل فوقهم مثل الظلة وقيل لهم خذوا التوراة وعليكم الميثاق ألا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل فسجدوا لله وأخذوا التوراة بالميثاق وهو ميثاق لا ينسى، فقد أخذ في ظرف لا ينسى، أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم، وظنوا أنه واقع بهم. أعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس. وقد أمروا في ظل تلك الخارقة أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل نقضت الميثاق ونسيت الله، ولجت في المعصية حتى استحقت غضب الله ولعنته. قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [٣].

السادس: شاهد على المكر والخديعة، والإنفلات من قيود الشريعة وتهاون البشرية في تعاليم الدين قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٤] والمراد بالجبال

---

(١) نتقنا الجبل معناه: رفعناه عليهم كأنه ظلة يستظلون بها.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧١.

(٣) سورة المائدة: الآيتان، ٧٨-٧٩.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤٦.

في هذا الموضع قولان:

أحدهما: الجبال المعروفة قاله الجمهور.

الثاني: أنها ضربت مثلاً لأمر النبي ﷺ وثبوت دينه كثبوت الجبال الراسيات والمعنى لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبل لما استطاعوا إزالة دين الإسلام.

والدليل على هذا قوله تعالى ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [١] أي قد وعدك يا محمد بالظهور عليهم وبالنصر وبالفتح، والله سبحانه وتعالى منجز وعده.

السابع: شاهد على احتضان النحل لتأخذ من كهوفه بيوتاً لأوبها وموضعاً لعسلها وكناً لتناسلها. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ ﴾ [٢].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٧.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٦٨-٦٩.

جعل الله بيوت النحل في هذه الأنواع الثلاثة:

إما في الجبال وكهوفها.

وإما في متجوف الأشجار.

وإما فيما يعرض ابن آدم من الخلايا والحيطان وغيرها.

قال ابن العربي: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى مثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل وكان كالقطعة الواحدة.

الثامن: شاهد على أنه كان كناً يحفظ من يأوي إليه من المطر والريح وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [1]. أكناناً للخلق يأوون إليها ويحتضنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها، وفي الصحيح أنه – عليه السلام – كان في أول أمره يتعبد بغار حراء ويمكث فيه الليالي.

وفي صحيح البخاري: خرج رسول الله ﷺ مهاجراً هارباً من قومه فاراً بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال. قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) سورة النحل: الآية ٨١.

﴿ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

التاسع: تسبيح الجبال لخالقها الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣).

وقوله أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ (٤)

هذه الآيات الثلاث تصور من فضل الله على داود – عليه السلام – وأنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات فاتصلت حقيقتها بحقيقته في تسبيح بارئها وبارئه، ورجعت معه الجبال والطير – وهذه الدرجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله يزيح عنه حجاب كيانه المادي ويرده إلى كينونته اللدنية التي يلتقي بها بهذا الوجود وكل ما فيه بلا حواجز ولا حدود.

فيرى ما لم يكن يرى.

ويسمع ما لم يكن يسمع.

ويحس ما لم يكن يحس أو يشعر به.

فيسمع تسبيح الجبال والطير وتجاوب السهول، والوديان، والأمواج والبحار والظل والشجر، والنور والظلمة، والشمس والقمر، وكل حصاة

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٣) سورة ص: الآية ١٨.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٠.

وكل حجر وكل حبة وكل ورقة، وكل زهرة وكل ثمر، وكل نبتة وكل غصن وكل حشرة وكل زاحفة، وكل حيوان، وكل إنسان، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١).

العاشر: موقف الجبال من الأدعياء، أدعياء الشرك وتعدد الألوهية عندما تجرءوا ووصفوا الله تعالى بما لا يصح أن يوصف به ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢).

عندها كانت هذه الغضبة الكونية التي اشتركت فيها السماوات والأرض والجبال حتى تحولت إلى زلزال كبير مدمر بمجرد سماعهم لهذه الكلمة النابية ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ وكأن الكون كله قد تحول إلى أفواه مزمجرة تقول لهؤلاء المشركين ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣).

لقد اهتز كل ساكن وارتج كل مستقر، وغضب كل ما هو داخل في هذا الكون غضباً شديداً لبارئه وخالقه، لأن هذه الكلمة صدمت كيانه وفطرته وخالفت ما وقر في ضميره وعقله، وما استقر في كيانه وحسه وهز القاعدة التي قام عليها الوجود واطمأن إليها، ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ (٤).

وفي وسط هذه الثورة العارمة يدوي في جنبات الكون اللانهائي آيات

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٢) سورة مريم: الآية ٨٨.
(٣) سورة مريم: الآية ٨٩.
(٤) سورة مريم الآيتان: ٩١-٩٢.

بينات تنزيل من حكيم حميد: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[١].

الحادي عشر: حالة الجبال يوم القيامة، وكيف أن بعضها يسير إلى حيث يريد لها خالقها، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[٢].

يقول صاحب الظلال:

«إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب، مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا خافية»[٣] قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾[٤].

وبعضها يمر في هذا الكون العريض كما يمر السحاب بل هو أسرع قال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾[٥].

أين تذهب في مرورها هذا..؟

إنها تترك الأرض التي أقيمت عليها فهل تذهب إلى السماء..؟

وليس في السماء موضع لها قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ

---

(١) سورة مريم: الآيات ٩٣-٩٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٧.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٥/ ٢٢٧٤ .

(٤) سورة الحاقة: الآية ١٨.

(٥) سورة النمل: الآية ٨٨.

﴿ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ ﴾ (١).

أتراها تذهب إلى كوكب الشمس أو إلى كوكب آخر وفي الحقيقة ليس في مقدورها ذلك لأنها الأخرى ذاهبة بأمر الله تعالى. قال جل جلاله: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾ (٢). إذاً هي ذاهبة حيث أرادها الله تعالى ولا يعلم ذلك إلا هو.

وبعضها ينسف نسفاً فيتطاير شظايا وذرات قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٧ ﴾ (٣). الجبال الراسية قد نسفت نسفاً، وتحطمت بعد أن كانت حصوناً. وتساوت بالأرض بعد أن كانت تطاول السماء.

وبعضها يبث كما يبث الدقيق فيكون ذرات صغيرة متطايرة، قال تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ (٤).

إنه الهول الكبير، الذي لا يُبْقي ولا يذر، إنه الطوفان المدمر الذي يكتسح الأخضر واليابس، إنها الواقعة الكبرى التي تبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات. والناس أين هم..؟

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.
(٢) سورة التكوير: الآيتان ١-٢.
(٣) سورة طه: الآيات ١٠٥-١٠٧.
(٤) سورة الواقعة: الآيتان ٥-٦.

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [١].

ثم ماذا..؟ هل تعاد الجبال مرة أخرى...؟

هل تبدل كما تتبدل الأرض...؟

هل تعود مرة أخرى أوتاداً وراسيات...؟

هل تعرض للحساب والعقاب أم أنها خارجة عن نطاق التكليف إن الجبال كما قلنا تسبح لخالقها، وترسل الحمم والبراكين إذا أمرها ربها فهل يكون لها جزاء؟ ولا شك أنها دخلت في طاعة الله عندما أمر الله السماوات والأرض بذلك، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [٢].

إن الآثار التي بين أيدينا لم تشر إلى شيء من ذلك وعلينا الالتزام بما اخبرنا الله تعالى به. ولا نطلب ما هو فوق طاقة العقل حتى ندخل في زمرة من استجابوا لأمر ربهم وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [٣] وإذا كان ذلك كذلك فعلينا أن نقطع شوطاً آخر في المبحث وعلى الله قصد السبيل.

******

(١) سورة عبس : الآيات ٣٤-٣٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

الفصل الثالث
التزاوج والتوازن الطبيعي
في منهج القرآن والعلم الحديث

التزاوج والتوازن الطبيعي مكتشف من مكتشفات العلم الحديث، وقد سبق القرآن إلى تقرير ذلك. والتزاوج محكوم بالتوازن الطبيعي الذي يحكم حركة الحياة والتوالد والنمو في الكون.

وهو تزاوج ينتج عنه وحدة تقوم مع وحدة أخرى بنفس العملية من التزاوج لتنتج وحدة جديدة تُعَوِّض ما لحق الوحدات السابقة من الموت والاندثار والفناء.

من سنن الله الكونية أن جعل الازدواج قواماً لجميع الكائنات حتى يكمل بعضها بعضاً، وتتوالى آثارها الناتجة عن هذا الازدواج في تعمير الكون وتحقيق دور الخلافة في الأرض قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

الازدواج في عالم النبات

هذه الآية تدل على أن كل الأحياء، وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ويتم التلقيح بينها إما عن طريق الرياح التي تهب في موسم الإخصاب قال الله

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (١).

فهي بهبوبها تحمل طلع النبات الذكر إلى النبات الأنثى وبهذا يتم التلقيح وإما عن طريق الحشرات والفراشات التي تنتقل من زهرة إلى أخرى فتحمل أرجلها وأجنحتها حبيبات اللقاح.

وإما أن يتم عن طريق الأمطار التي تهطل في هذه المواسم فتحمله معها إلى شيء النباتات قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (٢).

وبعض أنواع النبات تحمل في ذاتها الزوج الآخر فهي تضم أعضاء التذكير والتأنيث مجتمعة في زهرة واحدة أو متفرقة. قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣).

وهذا النبات كائن حي له روح كما كان يقول الفيلسوف أرسطو في دولة اليونان، واستمر الوضع على ذلك حتى كان القرن الثالث عشر أعلن «كارل فون لينى» أن النبات له مواصفات الحيوان والإنسان إلا أنه ليس له قدرة على الحركة.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.

(٢) سورة طه: الآية ٥٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ٤.

وفي القرن التاسع عشر أعلن «داروين» أن النباتات المتسلقة تتمتع باستقلالية الحركة. وأكد ذلك «راؤول فرانسيه» بقوله: إن النبات يحرك جسمه بحرية ورشاقة، وبشكل لا يقل عن الإنسان أو الحيوان.

ومن حركته سموق فروعه إلى أعلى وزحف جذوره في باطن التربة إلى مسافات بعيده فإذا اعترضها حاجز صخري، أو حائط دارت خلفه حتى تصل إلى بغيتها وعلماء النبات في هذه الآونة يقدمون الأدلة القاطعة التي حصلوا عليها عن طريق التجارب: إن النبات يرى ويسمع، ويلمس ويتذوق، ويشم بحساسية فائقة ليس هذا فحسب بل تراهم يقولون: إن النبات يستطيع أن يقرأ أفكار البشر والحيوانات ويستجيب لعواطفهم، ويدافع عن نفسه ضد من يريد الضرر به.

ومن الأشياء التي رصدها العلماء عن النخلة الأنثى، أنه إذا كان يجاورها ذكر، وعملوا على قطعه حزنت عليه حزناً شديداً وتعبر عن حزنها هذا بعدم حملها للثمار، وقد يستمر هذا الحزن سنة أو أكثر ولا تعود على طرح الثمار إلا إذا جاء صاحبها مهدداً بأنه سيعمل على قطعها إن لم تثمر في العام القابل.

وإذا كان ذلك كذلك فالازدواجية أوجدها الله في عالم النبات لأنه كائن حي ككل المخلوقات الأخرى. التي تعمل بمشيئة الله وقدرته على استمرار نوعها وامتداده عبر دروب الزمن.

والنبات ككل المخلوقات الأخرى تخاف الله وتطيعه في أوامره وتسبح له

آناء الليل وأطراف النهار، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ (١).

وإنه لمشهد فريد حين يتصور القلب كل حصاة، وكل حجر، كل حبة وكل ورقة وكل زهرة وكل ثمرة، كل نبته وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه.

ولكن لماذا لا نفقه تسبيحهم...؟

ولماذا لا نسمع تراتيل أصواتهم...؟

لا يحدث هذا لأننا محجوبون بصفاقة الطين، فغشى على بصائرنا فلا ترى وأغلق على آذننا فلا نسمع.

ولكن حين تشف الروح وتجلى البصائر فإنها تزال من أمامها الحجب والمساتير فترى ما لم تكن ترى، وتسمع ما لم تكن تسمع. وعندها يتحول الإنسان من ترابية الأرض إلى شفافية السماء. فيكون الله تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه.

وهذا النبات ملتزم بالضوابط والموازنات التي وضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه جميعاً. فإذا تعدى النبات أو الجماد أو الإنسان ما قدر له وجد

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

أمامه جند الله لتصده وترده عن غلوائه.

والواقعة الآتية مثل بارز على أهمية تلك الضوابط. فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقترب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهل المدن والقرى وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة الأخرى. ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار. وصارت استراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء النبات والحشرات بنواحي العالم يبحثون عن وسيلة توقف جيش الاحتلال هذا. وأخيراً وجدوا حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو ويعوقها في أستراليا، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار وقضت على كل أسلحته، ثم ذهبت جيوش هذه الحشرة من حيث أتت ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد.

وصدق ربي في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾ [١] وأيضاً قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [٢].

هذه واقعة أخرى للضوابط والموازنات التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون والتي تدل دلالة قاطعة على قدرة الله تعالى وأن كل شيء عنده

---

(١) سورة الفتح: الآية ٧.

(٢) سورة المدثر: الآية ٣١.

بمقدار، وصدق ربي في قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [١] وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٢].

لقد كان الاستعمار البريطاني يرابط على أرض الهند، وكان الجنود لا يجدون شيئاً يتخلصون من فراغهم القاتل وأيامهم الرتيبة سوى العبث بمقدسات البلاد أو الإطاحة ببعض الرقاب.

وفي يوم من الأيام أخذ أحد الجنود أجازته وقرر أن يقضيها في بلدته إنجلترا ولكن ماذا يأخذ من الهدايا لعروسه من هذه البلاد؟ وبعد أن أعياه التفكير قرر أن يأخذ جلد ثعبان لما فيه من نقوش زاهية وأشكال هندسية بديعة وعندما هبطت به الطائرة على أرض بلده كان يضع هذا الجلد على كتفه وكأنه لوحة فنية تبهر العيون، ولمح الجلد هذا أحد تجار الأحذية فقرر أن يستولى عليه مهما كان الثمن. وفعلاً تحقق له ما أراد. وصنع منه مجموعة من أحذية السيدات. وما كاد هذا الصنف الجديد ينزل إلى سوق الأحذية، حتى تهافتت السيدات على شرائها بأثمان باهظة، وتكاثر الطلب عليه عندها أسرع هواة الصيد يقتنصون الثعابين ويسلخون جلودها ويبيعونها بمثل وزنها ذهباً.

وما هي إلا فترة وجيزة من عمر الزمن حتى تناقصت الثعابين إلى درجة كبيرة بل كادت أن تتلاشى بالكامل.

وكانت الهند في ذلك الوقت تزرع أراضيها بحقول القمح. وعندما

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٩.

اقترب موسم الحصاد. وذهب الفلاحون لجمع محصولهم وجدوا أن الفئران قد التهمته كله وكانت هذه ظاهرة عجيبة لم تحدث لهم قبل ذلك، وأخيراً اهتدوا إلى أسباب الكارثة. لقد كانت الثعابين - وهي من جند الله - تتغذى على الفئران فكانت تقل ولا تكثر ولهذا كانت تسلم لهم حقول القمح ولكن عندما انقرضت الثعابين، انتشرت جيوش الفئران، فقضت على الغذاء الأساسي الذي كانوا ينتظرونه. وصدق ربي في قوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (١).

فإذا تدخل الإنسان بطمعه وجشعه لتغيير هذا النظام عاجله ربه بالعقوبة وصدق ربي في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (٢). وإذا كانت الازدواجية هذه بالنسبة للنباتات فهل نجدها في دنيا الجمادات والمائعات...؟

الازدواجية في عالم الجمادات

لقد أثبت العلماء أن الجماد يتكون من الذرات، وأن كل ذرة مزدوجة من نواة (بروتون) وكويكب (الكترون) يدور حولها. وأن النواة كهرباء موجبة والكويكب كهرباء سالبة. فكل ما في الجماد مزدوج ولا يتم كيانه إلا بهذا الازدواج.

والعجيب في الأمر أن الموجب إذا التقى بالسالب في عالم الكهرباء انتج

---

(١) سورة الرعد: الآية ٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣١.

الضوء والحرارة، وسير المركبات والطائرات، وفجر البحار وشق الأنهار وتوالت الإنتاجية له والتي لا تقف عند حد. فإذا التقى السالب بالسالب، أو الموجب بالموجب صار عقيماً لا ينتج شيئاً فلا يرسل دفئاً ولا يبعث ضوءاً.

وعالم المغناطيسية كالكهرباء تماماً مكون من قطب سالب وآخر موجب فإذا التقى السالب بالموجب انجذب كل منهما إلى صاحبه. أما إذا كان سالباً وسالباً أو موجباً وموجباً فإنهما يتنافران ولا يلتقيان ويتباعدان ولا يقتربان.

يحدث هذا في عالم الجماد، ويحدث أيضاً في عالم النبات والحيوان ولا يحدث العكس إلا في عالم الإنسان عندما تفسد الفطرة وتنتكس الجبلة وتعيش فئة من البشر في بؤرة التعفن، والانسلاخ من أبسط قواعد الآدمية لقد كان من نتائج انجذاب الموجب مع الموجب والسالب مع السالب في عالم الإنسان أن تفشى ما يسمى بالطاعون الجديد.

أو طاعون الشواذ.

أو القنبلة الموقوتة في جسم الإنسان.

وأخيراً الاسم الحركي له «الإيدز».

لقد سموا (الإيدز) بطاعون الشواذ ونفس هذه التسمية هي التي أطلقها الرسول منذ أربعة عشر قرناً حيث قال: «ما ظهرت الفاحشة في قوم إلا أصابهم الله بالطاعون».

نعم طاعون الشواذ أو الإيدز.

الـذي يقـول عـنه الدكـتور «كلـيفورد لين» إن ميكانيكية التكاثر في هذا الفـيروس تعـد مـن أعظـم وأضخم التأثيرات التي رأيتها في علم «البيولوجيا» وهذا يفسر الأثر التخريبي أو التدميري لهذا المرض.

ذلـك أن هـذا الفيروس عندما تختفي من أمامه خلايا المساعدة عند تقدم المـرض يعمـل على تدمير بنيته وتدمير الخلايا الباقية أيضاً، ويظل المريض إزاء ذلك بمنأى عن الشفاء.

إنها عملية تدمير.

تدمير لكل الخلايا.

وتدمير للجسم كله.

وتدمـير لبنـية المجـتمع قاطبة الذي يسمح لهؤلاء الشواذ بالإقامة فيه وهنا تـبرز عظمة الإسلام وحكمته في جعل الزنى واللواط من أبشع الجرائم وجعل الحدود المتعلقة بها في مكانها الصحيح.

وتـبرز عظمـة الإسـلام أيضاً في تصوير عقاب المجتمع الذي ينساق وراء هـذه الشـهوة القبـيحة حيـث يدمـرهم تدمـيراً قـال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (١).

وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها

(١) سورة الصافات: الآيات ١٣٣-١٣٦.

ويقول الله أيضاً: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١).

وهذه الصورة المقلوبة أشبه شيء بالفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان بل إن كثيراً من الحيوانات تعف ملتزمة عند حدود فطرتها ومن سنوات قليلة في البلاد التي تسمى ببلاد التمدن والتحضر خرجت المسيرات والمظاهرات التي كان يقودها الشواذ جنسياً في أوروبا وأمريكا مطالبين ببعض الحقوق التشريعية والمدنية الخاصة بهم وأمكنهم أن ينالوا بعض الحقوق المتعلقة بالحرية الشخصية وممارسة الفحشاء جهراً في حماية القانون.

وتحقق لهم ما أرادوا وأمكنهم بذلك أن يستغلوا قانون البشر الذي يخطئ ويصيب، ويجامل ويحابي، ويغفل وينسى في تحقيق أغراضهم فهل أمكنهم الإفلات من قانون الله تعالى؟ أو من عقاب السماء؟

لا . ليس في استطاعتهم ذلك. لقد حاصرهم الله تعالى وقضى على كل مقاومتهم عن طريق «الإيدز» الذي لا فكاك فيه ولا مهرب من شباكه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢).

وإذا كانت الازدواجية في عالم الجماد قد شملت الذرة والمغناطيسية

---

(١) سورة هود: الآيتان ٨٢-٨٣.

(٢) سورة الفجر: الآية ١٤.

فنجد الازدواجية أيضاً في ملح الطعام الذي يتكون من «صوديوم» و «كلوريد» والأول شديد الاشتعال، والثاني غاز سام – إنه الموجب والسالب ونحن لا نستطيع بأي حال من الأحوال الاستغناء عن ملح الطعام إلا في الضرورات الملحة التي تفرض علينا ذلك. وهذا الشي الذي نحبه لا نقبله إلا عن طريق الازدواجية.

فإذا انفصل أشعل أحدهما الحرائق، ودمر المنشآت، وكان الآخر سماً قاتلاً لكل من يلمسه أو يقترب منه. والازدواجية نجدها أيضاً في الماء. الماء الذي يعد أول شيء برز في هذا الكون قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ .

والماء أيضاً هو أساس تكوين الخلية الأولى في النبات والحيوان والإنسان قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (١). وقال أيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (٢). وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٣).

هذا الماء يتكون من «الهيدروجين» و «الأكسجين».

الأول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال.

الأول موجب والثاني سالب.

وبغير تزاوجهما ما كان هناك نبات ولا حيوان ولا إنسان ولاختفت

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) سورة النور: الآية ٤٥.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

الحياة جملة من على هذا الكون.

والنتيجة أن كل ما في الكون محتاج إلى ما يكمله، وانفرد بالوحدانية المطلقة الله وحده فإنه غير محتاج إلى ما يكمله، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وكل ما نشاهده أو ندركه خاضع لهذا الازدواج من ليل ونهار، وحياة وموت وجسم وروح، وأرض وسماء وطاقة ومادة. حتى الصفات والأحوال من قوة، وضعف، ورضى وغضب، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وخير وشر، ونبات وجماد، وأرض وسماء وكواكب ونجوم، وناطق وصامت وحيوان وإنسان.

******

التزاوج والتوازن في عالم الإنسان والجن

نعم الإنسان الذي خلقه الله تعالى من طين الأرض ونفخه من روحه فأصبح مكوناً من مادة وطاقة، وظهر فيه عنصر الازدواجية قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ (٢).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد فطرنا من عنصر تغلب فيه طبيعة المادة فإن الله سبحانه وتعالى – خلق عالمين آخرين من عنصر الطاقة – هما عالم الملائكة المخلوقين من النور. وعالم الجن المخلوق من النار. والإنسان ينقاد لهذين العالمين المزدوجين. عالم الملائكة الممثل للخير وعالم الجن الممثل للشر.

فالإنسان يقضي حياته في صراع عنيف بين هذين الجانبين، فإذا نجح في هذا الصراع وفاز في هذا الابتلاء فهو من المفلحين، وإذا فشل وانجذب إلى الشر فقد خسر نفسه ودنياه وذلك هو الخسران المبين.

والملائكة تتنزل على المؤمنين الأتقياء قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟

---

(١) سورة الحجر: الآيتان ٢٨-٢٩.

(٢) سورة السجدة: الآية ٧.

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (١).

والشياطين تتنزل على الفجار الآثمين قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (٢).

ومن هنا كان الإنسان مبتلى بحافزين قويين هما حافز الخير وحافز الشر والسعيد من هداه الله والشقي من أضله الله، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

يقول صاحب الظلال:

(إن الابتلاء بالخير أشد وطأة. لأن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة. ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم، كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهادى نفوسهم ولا تزل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء وما يغري من متاع وما يثير من شهوات وأطماع.

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ويصبرون على

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ٣٠-٣١.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٢٢١-٢٢٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

التهديد والوعيد فلا يرهبهم. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذل الأرواح.

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها. أما الرخاء فيرخي الأعصاب ويمنيها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء [(١)].

ومن مظاهر الازدواج، أن لكل إنسان قريناً من الملائكة يحفزه إلى الخير وقريناً من الشياطين يدفعه إلى الشر.

روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ : (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا وإياك يا رسول الله..؟

قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) [(٢)].

---

(١) راجع في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٧٧-٢٣٧٨.

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ٢١٦٧، وأحمد ١/ ٣٨٥ .

روى الترمذي وابن حبان عن النبي ﷺ : (إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله. ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان) [١] .

وهذا الإنسان الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته لم يخلق عبثاً وإنما وجد لغاية، وهي عبادة الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٢]. وأهبط إلى الأرض ليقوم بدور الخلافة ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [٣].

وحياته رحلة قصيرة، وأيامه معدودة فوق هذا الكوكب الأرضي وأجزائه وتركيباته وأطرافه صنعت لتلائم هذا الدور وتتناسب مع تلك المدة فهو لا يبقى في رحلته أكثر مما قدر له، وإلا تلفت أعضاؤه وفسدت خلاياه فلا تستطيع القيام بدور أو المشاركة في حياة.

وهذا الإنسان لا يكلف أكثر مما يطيق، ولا يعطي من المعرفة فوق ما تحتاجه هذه الرحلة، وإلا اختلطت عليه الأشياء وتعددت أمامه السبل وهذا الكون مخلوق ليتناسب وقدراته ويتلاءم مع مواهبه فلا يرهق من أمره عسراً.

وكل شيء محدود ومقدر. ليس للصدفة مكان ولا للرأي العجل

---

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢٩٨٨ وقال هذا حديث حسن غريب، وابن حبان ٩٩٨ .

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٣٠.

موضع. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [١].

وهذا الإنسان الفاني الضعيف يستطيع أن يتصل بالقوة الكبرى، قوة الله يتصل بلا وساطة أو كهانة. قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [٢].

وكل إنسان يأخذ حقه كاملاً لا ينقص منه شيء وحياته ليست بقاءه على ظهر الأرض فقط، وليست هذه الرحلة القصيرة المحدودة ولكن هناك حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية، فما نقص هنا أدخر له هناك، وما حرم منه في الدنيا يضاعف له في الدار الآخرة.

وإذا كان كذلك فما الداعي إلى القلق الذي يمزق الإنسان في داخله..؟ أو الحسرة على ما فات أو التألم على ما حرم منه..؟ وهل استطاعت البشرية بما اخترعت من مبادئ وأفكار أن توجد الرضا في داخل النفس...؟

إن الواقع المشاهد ينفي ذلك... ويقرر أنها أوجدت التكالب والصراعات والحروب المدمرة. لأنها لم تستطع أن تسوى بين الأفراد جميعاً ولن تستطيع.

والمذاهب المادية على ما بذلته من وعود، وما سودته من قرارات لم تستطع أيضاً أن تزيل الدمامة عن مشوه الصورة أو تعوض الإنسان فقد عضو واحد من أعضائه.

ولم تستطع بالرغم من تقدمها في عالم المادة أن تجعل من قصر القامة

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

طـولاً أو من العقم إخصاباً، أو أن تتحكم في نوع الإنجاب ولكن الدين وإن لم يفعل ذلك فهو يقدم البديل لذلك كله.

إنـه يقـدم الاطمئـنان إلى عـدل السـماء وحكمة الخالق يقول الله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١).

ومـع ذلـك فنصـيبه مدخـر، وأجـره محفـوظ، وقد لا تنكشف لنا حكمة الخالق وعدله من قريب فعلينا أن نترصد لها .

وحكمـة الله مـبذولة لخلقـه، وتعطـى لمـن يصطفي من عباده قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ (٢).

وإلهامـات الله لا تقف عند حد ولا تنتهي عند عصر ولا يختص بها جيل مـن الأجـيال يقول الرسول ﷺ : (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها) (٣) والله أعلم.

******

(١) سورة النساء: الآية ١٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.
(٣) الطبراني في الكبير ١٩/ ٢٣٤، وانظر الأحاديث الصحيحة للألباني ١٨٩٠ .

الفصل الرابع
انشقاق القمر من الأرض
بين القرآن الكريم والعلم الحديث

انبهرت البشرية منذ القدم برؤية الشمس والقمر اللذين يرسلان الدفء والنور إلى أنحاء الكرة الأرضية. عندها ربطت بين القمر وما يجري على سطح الكرة الأرضية من مد وجزر وما يتبع ذلك من أحداث ووقائع وما ينال البشرية من خير وشر.

وبالغ بعض الناس في الفوائد الجمة التي يحصلون عليها من أشعة الشمس نهاراً، وما يستمتعون به من ضوء القمر حيث يكون لهم هادياً ومرشداً في دجنة الليل. فعبدوهما للتقريب إلى الله تعالى الذي وهبهم هذه النعم. وعندما جاء القرآن الكريم أرشد البشرية إلى الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى. خلق من خلقه فلا تصح العبادة إلا له. قال تعالى: ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١).

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق المبدع الكريم المتعالي والشمس والقمر من مخلوقاته تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) سورة فصلت: الآية ٣٧.

عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [١].

والقمر في حقيقته لا تنبعث منه أشعة حرارية أو ضوئية. ولكن عندما تظهر على سطحه أشعة الشمس الساقطة يبدو للناظرين إليه ليلاً بأضوائه المنيرة.

والشمس جسم غازي ملتهب تضيء نفسها بنفسها – هكذا خلقها الله – وتنبعث منها أشعة حرارية وضوئية. يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [٢].

(١) سورة مريم، الآية ٩٣.

(٢) سورة نوح: الآية ١٦.

سطح القمر واكتشاف العلماء لجسمه الضخم

يكاد يكون اتفاق بين علماء «الجيولوجيا» أن القمر تابع للأرض، وأنه قطعة منها ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة. منها قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ (١).

ويعد العالم «جاليليو» أول من شاهد القمر عبر منظاره الفلكي المبكر وأول من درس ظواهره التضاريسية الكبرى. وشاهد هذا العالم أراضي جبلية وهضبية شديدة التضاريس ذات لون فاتح فوق سطح القمر.

وعندما بدأت الرحلات إلى سطح القمر عن طريق الكوكبة الفضائية «أبوللو» و «لونا» استطاع العلماء أن يتعرفوا على الكثير من تربة هذا الكوكب وتم رسم خرائط تفصيلية لسطح القمر.

لهذا يعد العلماء أن القمر ابن الأرض وولدها الوحيد، وتابع لها في مداره الانتقالي حولها.

ويعتقد أصحاب هذه النظرية أن ليالي الأرض فيما قبل العصر الكربوني لم تكن لها قمر منير في السماء بل كانت السماء مزينة بزينة النجوم والكواكب ولم يظهر القمر في سماء ليالي الكرة الأرضية إلا منذ نحو ٤٠٠ مليون سنة أي بعد انسلاخه من كوكب الأرض (٢).

وبالطريقة نفسها التي تكون منها قمر الأرض تكونت أيضاً أقمار وكواكب المريخ والمشتري وزحل.. الخ.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤١.

(٢) راجع. د. حسن أبو العينين، جغرافيا البحار والمحيطات، ط ثامنة ١٩٨٩م، ص ٥٦٢.

دوران القمر حول الأرض

القمر كويكب تابع للأرض وأنه يدور في مدار حولها وتستغرق دورته الواحدة الكاملة حول الأرض ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة وبعض الدقائق. ويعرف الطول الزمني لهذه الدورة باسم الشهر القمري، وهي الفترة الزمنية التي تقع بين رؤية بدرين متتاليين [١].

وحيث أن القمر جسم معتم ويعكس سطحه الأشعة الشمسية الساقطة عليه لذلك فإن الناظر إليه من الأرض يشاهد أثناء دوراته بأشكال مختلفة بحسب جسم الأجزاء المنيرة من سطحه التي تعرف باسم أوجه القمر [٢] قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٣].

وفي حالة المحاق يختفي القمر حيث إن جانبه المظلم يواجه الأرض ولا تسقط عليه أشعة الشمس. وذلك لأن القمر يقع في هذه الحالة بين الأرض والشمس وجميعها على خط زوال واحد [٤].

وقد وصف القرآن الكريم هذا المشهد الرائع لأوجه القمر وهلاله المقوس الشكل الرقيق المظهر كالعرجون القديم. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ

---

(١) راجع أحمد زكي في «مع الله في السماء» دار القلم بيروت، ص ١١٩.

(٢) مع الله في السماء مصدر سابق.

(٣) سورة يس: الآية ٤٠.

(٤) «هوايت النجوم» ترجمه إسماعيل حقي، دار المعارف القاهرة ص ٣٥.

مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١).

ورؤية القمر في السماء تثير في الحس المشاعر والخواطر الفياضة التي يستدل بها الإنسان على قدرة الخالق المبدع عز وجل الذي زين السماء الدنيا بزينة الكواكب. وجعل لكل منها مدارها الخاص بها والكل مسخر بأمر الله تبارك وتعالى. ويسبح بحمده ويسجد لجلاله قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ (٢).

وإن من شيء إلا يسبح بحمده يسبح بطريقته ولغته، ولكن لا نفقه تسبيحهم لأنهم محجوبون عنا بصفاقة الطين. إن كل ذرة في هذا الوجود الكبير تبتهل وتسبح لخالقها مدبر هذا الكون.

وحين تشف الروح وتفر إلى خالق الأرض والسماء. وتهاجر في رحلة متأنية من الخضوع والاستسلام والبعد عما نهانا عنه ندرك نحن أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون الذين شغلتهم الدنيا بحطامها الفاني وشهواتها المتأججة.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

خسوف القمر وأثر الظل في عملية المد في البحار والمحيطات

يقصد بخسوف القمر احتجاب كل ضوء القمر أو جزء من ضوئه عن الأرض وهذا لا يحدث كذلك إلا إذا وقعت الأرض بين كل من الشمس والقمر عندما تكون مراكزها على استقامة واحدة أي على خط زوال واحد.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (١).

والظل كما يكون على سطح الأرض فهو يحدث أيضاً بين الأجرام والكواكب التي تسبح في الفضاء السماوي، وله تأثيره المباشر على ما يحدث من أمور على سطح الأرض.

وذلك عندما تكون الشمس والقمر والأرض على خط واحد يتحجب ضوء الشمس على سطح القمر. عندها تزداد قوة جاذبية القمر والشمس على قوة الطرد المركزية للأرض وتتأثر بذلك الغازات في الغلاف والمياه في المحيطات على سطح الأرض ويتكون ما يُعرف بالمد العالي.

فالظل هو ما تتلقاه الأجرام من الظلمة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس. ومن ثم تتغير أوضاعه وأشكاله من حين إلى آخر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٤٥-٤٦.

ويقول المفسرون: إن بناء الكون المنظور على هذا النسق وهذا التنسيق المذهل المحكم في مواقع النجوم والكواكب ومدارات كل منها هو الذي جعل الظل متحركاً هذه الحركة المقدرة تقديراً محكماً.

ولو كانت سرعة دوران الأرض في مدارها أسرع أو أبطأ مما هي عليه لاختلف كذلك شكل الظل عليها عما نراه اليوم. وهكذا يستدل الإنسان على أن كل شيء في الكون قد خلقه الله بقدر وقدره تقديراً محكماً. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١).

وقوله أيضاً: ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٢). إذن كل عناصر الكون مسخرة وفق قاموس إلهي محكم لا مجال فيه للعشوائية أو المصادفة.

وهذه الظواهر الكونية المتعددة المعجزة تستدعي انتباه الإنسان ساكن سطح هذا الكوكب وتدعوه في كل لحظة إلى التأمل والتبصر والتمعن في ملكوت الله جل وعلا. وتحرك الإنسان خليفة الله في أرضه وتفتح له طريق الهداية وترشده إلى أقوام السبل عندها يتجلى القلب بنور الهداية والتوفيق. ويهتف الإنسان من أعمق أعماقه: ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ (٣) فإذا تحقق له ذلك أصبح ربانياً يقول للشيء كن فيكون ويصبح داعية إلى ربه ويهتف من أعماقه لإخوانه في البشرية قائلاً لهم: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (٤).

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٧.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٥٠.

الباب الثالث
الغلاف الجوي أو طبقة الهواء التي تحيط بالأرض

قال تعالى:

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ ﴾

سورة الطور: الآيتان ٥-٦.

الفصل الأول

الغلاف الجوي... خصائصه وأثره في استمرار الحياة

خصائص الغلاف الجوي

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الأرض محاطة بغلاف جوي يسمى الهواء. وهو عبارة عن طبقة من الغازات التي تحيط بالكرة الأرضية. وهذا الهواء متسع الأرجاء. دائم الحركة. ويؤثر على جميع أنحاء الكوكب الأرضي.

ويقول بعض العلماء: هذا الهواء لا طعم له ولا رائحة ويقدرون ارتفاعه بما يقارب ألف كيلو متر. ثم تعتريه بعض الخلخلة ثم ينعدم تماماً [١].

وكان العلماء إلى عهد قريب جداً يظنون أن هذا الغلاف الجوي محتفظ بكل صفاته إلى أعماق الفضاء حيث تنتشر أجرام السماء، كالقمر والمريخ والزهرة وعطارد.

وفي عصر الإغريق فكر الاسكندر الأكبر – ولعله المعروف بذي القرنين – في أن يحلق إلى السماء للتعرف على ما فيها، وكانت وسيلته إلى ذلك كما تقول الأسطورة – عربة خاصة تصعد بها مجموعة من النسور القوية ولكن

---

(١) راجع كتاب الكون للدكتور منصور محمد حسب الله، ص ١٩٣.

التجربة باءت بالفشل [١].

وفي عصرنا الراهن بدأ الإنسان في التحليق إلى الطبقات العليا عن طريق المناطيد. في مسافة لا تزيد على عشرين أو ثلاثين كيلو متراً.

وفي عصر الطائرات والصواريخ، عرف العلماء أن الصعود قدماً في الجو يصبحه دون شك نقص في الضغط الجوي، وفي كميات الأوكسجين بمعدلات سريعة بحيث يصل الإنسان إلى الاختناق.

ولقد تناول القرآن الكريم هذه الحالة قبل أن يتوصل إليها العلماء بأكثر من أربعة عشر قرناً، قال تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [٢].

والإنسان يمكن أن يختنق إذا ارتفع عن سطح الأرض بمقدار عشرين كيلو متراً أو أقل من سطح الأرض. كما أن الدم يندفع من مسام أجسامنا لو خف الضغط عليها. ولهذا يستخدم رواد الفضاء بدلاً مكيفة الضغط وأنبوبة أكسجين للتنفس.

الأشياء التي يتكون منها الغلاف الجوي.

١- غاز النتروجين.

٢- الأكسجين.

---

(١) راجع الكون بين العلم والدين للدكتور محمد جمال الدين الفندي، ص ٣٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

٣- غاز الأيدروجين.

٤- غاز الهيليوم.

٥- ثاني أكسيد الكربون.

٦- الأوزون.

ولقد احتفظت الأرض بسبب جاذبيتها بهوائنا اللازم للحياة بنظام محكم وتقدير عجيب بفضل العناية الإلهية قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (١) وقوله أيضاً: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (٢).

قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه وقدر تضامنه وتعاونه مع مخلوقات هذا الكون الكبير. ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون.

وكلما تقدم العلم كشف عن بعض جوانب هذا التناسق الدقيق في كل ذرة من ذرات هذا الكون. وكل كوكب من كواكبه. وكل خلق من خلقه سبحانه وتعالى وهو العليم القدير.

يقول (أ. كريس موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان «الإنسان لا يقوم وحده».

«ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل. بالغاً

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٢) سورة الرعد: الآية ٨.

هـذه الدقـة الفائقـة، لأنـه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأكسجين ولما أمكن وجود حياة النبات».

«ولـو كـان الهـواء أرفـع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بـالملايين – في الهـواء الخـارجي – كانـت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضة – وهـي تسـير بسـرعة تـتراوح بـين سـتة أميال وأربعين ميلاً في الثانية. وكان في إمكانهـا أن تشـعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء لارتطمت كلها بالأرض، وكانت العاقبة مروعة».

«إن الهـواء سميـك بـالقدر الـلازم لمـرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي الـذي يحـتاج إليه الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات – دون أن تضر الإنسـان إلا إذا عـرض نفسـه لـه مـدة أطـول مـن الـلازم وعـلى الرغم من الانـبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر – ومعظمها سام – فإن الهواء باقٍ دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان».

ويقول في فصل آخر:

«لـو كـان الأوكسـجين بنسـبة خمسين في المائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً مـن ٢١٪ فـإن جمـيع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال. لدرجـة أن أول شـرارة مـن الـبرق تصـيب شجرة لابد أن تلتهب الغابة كلها وتصبح في خبر كان.

ولـو أن نسـبة الأوكسـجين في الهـواء قـد هبطـت إلى ١٠٪ أو أقل، فإن

الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور»[١].

إذن ما أعجب نظام الضوابط والموازنات (الذي أوجده خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت) سبحانه جل جلاله. وكل شيء عنده بمقدار. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[٢].

******

(١) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».
(٢) سورة يس : الآية ٤٠.

الفصل الثاني
أثر الغلاف الجوي في استمرار الحياة
الغلاف الجوي درع واقٍ للأرض وللأحياء على ظهرها

نتيجة للأبحاث الجادة التي قام بها العلماء على الغلاف الجوي الذي أوجده خالق الأرض والسماء، توصلوا إلى النتائج الآتية:

أولاً: يقوم هذا الغلاف – بمشيئة الله تعالى – بتوفير الهواء لجميع المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات دون تمييز، ودون إتاحة السيطرة أو التحكم في الهواء ومنعه عن مخلوقات الله.

وليس منا الآن من يجهل أن «أوكسجين الهواء» هو أساس الحياة على أرضنا الطيبة التي باركها الخالق جل وعلا. وعند استنشاقه يخرج مع الزفير غاز سام هو «ثاني أكسيد الكربون» الذي تمتصه الأشجار والنباتات ويتم ذلك عن طريق تأثير ضوء الشمس ثم يعود مرة أخرى – كما أراد الله تعالى – إلى «الأكسجين» الذي لا تستغني عنه مخلوقات الله بأي حال من الأحوال.

وهذا الهواء يتمدد، ولكن بدرجة لا تسمح له بالإفلات، والخروج بعيداً عن جاذبية الأرض له.

ثانياً: عن طريق الغلاف الجوي يقترب «الأكسجين» و «النتروجين» من سطح الأرض لارتفاع كثافتهما. والأول لازم للحياة والاحتراق والثاني يعمل على تخفيف حدة الأكسجين في عملية الاحتراق علاوة على أهميته في تغذية النباتات والأشجار.

ثالثاً: توصلت بحوث العلماء إلى أن «الأكسجين» لا يذوب بكثرة في الماء – وذلك لحكمة إلهية – وهي عدم اختفاء الأكسجين من الهواء عندما يذوب في الماء وبذلك تستمر الحياة – بإرادة الله تعالى – الذي هيأ النسبة الضئيلة من الأكسجين الذائب في مياه البحار والأنهار والمحيطات وغيرها.

رابعاً: الغلاف الجوي أو الهواء الجوي، شفاف يسمح بوصول الضوء من السماء ويقوم أيضاً بتشتيت هذا الضوء فيحدث النهار، وتظهر زرقة السماء والشفق، وغير ذلك من ظواهر ضوئية.

كما أن الغلاف الجوي ناقل للصوت، ولهذه الأسباب فإن رواد الفضاء عندما يغادرون الغلاف الجوي للأرض يقابلهم الظلام التام فلا يرون نوراً ولا يسمعون صوتاً.

وهذه الحقيقة يمكن أن تستمد من قول الله تعالى:

أ- ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (١).

ب- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ (٢).

جـ- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣).

د- ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (٤).

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٩.

(٣) سورة يس: الآية ٣٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٢.

خامساً: إن سمك الغلاف الجوي لا يسمح باختراق الشهب وبذلك لا تصل إلى سطح الأرض عند احتكاكها بالهواء عقب دخولها للجو الأرضي والذي لا يمكن اختراقه إلا عن طريق النيازك الكبيرة النادرة.

سادساً: الغلاف الجوي: يعمل على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة «الأوزونوسفير» واختراق الشهب في الغلاف الجوي وابتعاد الأشعة الكونية والجسيمات الذرية الضارة في أحزمة تحيط بالأرض على ارتفاعات بعيدة.

كل هذا يجعل الأرض في وقاية من الدمار بفضل الله تعالى حتى يحفظ الحياة على ظهر الأرض. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١).

فسبحان الذي أوجد هذا الغلاف الجوي أو السقف المحفوظ واقياً لهذا الأرض وباقياً للحياة والأحياء على ظهرها.

يقول الدكتور منصور حسب الله:

وقد قسم العلماء طبقات الغلاف الجوي إلى أربع طبقات:

١- الطبقة السطحية: وهذه الطبقة تعتبر محيط التغير الذي يحدث فيه معظم التقلبات الجوية. من إثارة رياح، وسحب وأمطار. وغير ذلك ويطلق عليها المطبخ الجوي.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

٢- الطبقة ذات الطبقات: وفيها ترتفع درجة الحرارة ثم تنخفض ولهذا فالهواء عندها يكون في حالة خلخلة دائمة.

٣- الطبقة الحرارية: وهي تحتوي على بحر من «الأيونات» أي الذرات المشحونة كهربياً. وهي تلعب دوراً رئيسياً في عكس الموجات اللاسلكية التي تصدر من محطات الإذاعة وتردها إلى سطح الأرض فلا تهيم في الفضاء.

٤- المحيط الخارجي: وفيه تنخفض الكثافة الجوية إلى درجة العدم ولا تحترق خلاله الشهب، ولا يظهر فيه النهار، ولا يسمع فيه الصوت فهو ظلام دائم هادئ [١].

ولقد مر رواد الفضاء بهذه الطبقات الأربع عند دروانهم حول الأرض وعند رحلتهم إلى القمر عام ١٩٦٩م. وتشير الآية الكريمة إلى ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [٢].

******

(١) الكون الإعجاز العلمي للقرآن، مصدر سابق ص ١٩٦-١٩٧ بتصرف كبير.

(٢) سورة الانشقاق: الآيتان ١٨-١٩.

الفصل الثالث

الرياح في منهج القرآن

الرياح: قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١). والله سبحانه وتعالى يرسلها في صورة ما من صورها في الوقت المقدر على من يريد به الهلاك والدمار، أو بالحيا والحياة.

روى أبو داود عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها» (٢).

ويرى بعض العلماء أن عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣).

وكل موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (٤).

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) أخرجه أبو داود برقم ٥٠٩٧ والنسائي في عمل اليوم والليلة ٩٣١، وأحمد ٢/ ٢٦٨ .

(٣) سورة القمر: الآية ١٩.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤٨.

وقد ورد الريح في القرآن على ستة أوجه:

الأول: بمعنى القوة والدولة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١).

أي تذهب قوتكم ونصركم. والقوة عز لأهلها، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، قال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن الخافقات لها سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

قال قتادة: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهب. ومنه قوله عليه السلام: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» (٢).

وذكر الله تعالى عند لقاء العدو يؤدي إلى أمور جوهرية في سير المعركة.

١- إن الجندي الضعيف يتصل بالقوة التي لا تغلب. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (٣).

٢-ثقة الجند بالله تعالى الذي ينصر أولياءه، وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها فهي معركة لله لتقرير

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم ١٠٣٥ و٣٢٠٥ وأحمد ١/ ٢٢٨ .

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

ألوهيته وإخلاص العبادة له، وطرد الطواغيت الأدعياء للألوهية.

إذن فهي معركة لله لتكون كلمته هي العليا.

معركة خالصة له ليست للسيطرة ولا للمغنم.

معركة لنشر دين الله وليست للاستعلاء أو التحكم.

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١).

والتنازع يأتي حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه.

والتنازع يكون عند اتباع الهوى المطاع الذي يوجه الآراء والأفكار.

فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول للنزاع بينهم. فإذا اختلفت وجهات النظر بعد ذلك فليس الذي يسير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل صاحبه يتمسك برأيه مهما تبين له وجه الحق في غير ما يتمسك به.

الثاني: بمعنى العذاب في العقوبة:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

(٢) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٤-٢٥.

شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢).

تقول الروايات: إنّه أصابهم حرٌ شديد واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً وخرجوا يستقبلونها في الأودية، وهم يحسبون فيها الماء. ولسان حالهم يقول: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ (٣).

وجاءهم الرد من الخالق المبدع: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (٤). وهي الريح الصرصر العاتية التي ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٥) وتصور الآيات أن الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير. ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (٦).

وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الناس: فهذا الوجود حي، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه.

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان ٤١-٤٢.
(٢) سورة القمر: الآيتان ١٩-٢٠.
(٣) الأحقاف: الآية ٢٤.
(٤) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٤-٢٥.
(٥) سورة الذاريات: الآية ٤٢.
(٦) سورة الأحقاف: الآية ٢٥.

والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حق الإيمان ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب من الحياة والإدراك، ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار التي تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدت الريح ما أمرت به فدمرت كل شيء فأصبحوا لا يرون إلا مساكنهم [١].

راحوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

وقال شاعرهم يصف حالهم وما صاروا إليه:

فدعا هود عليهم دعوة أضحوا هموداً
عصفت ريح عليهم تركت عاداً خموداً
سخرت سبع ليال لم تدع في الأرض عوداً

الثالث: بمعنى نسمات الرحمة

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [٢].

---

(١) راجع في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٦٧ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٧ .

الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الرياح،فهي لا ترسل من غيره ولا ترسل من تلقاء نفسها ولكن الله سبحانه هو الذي يرسلها.

يرسلها بالرحمة لعباده ..

يرسلها محملة بالأمطار ولا تتنزل إلا بأمره، ولا تهطل إلا بإرادته فهي متناسقة مأمورة، حتى تأتي الأرض الموات فتهبط بأمر ربها لإحيائها عندها تكون قد أدت ما أمرت به، وتقوم الأرض بأمر الله تعالى بإخراج الغلال والثمار. وهذه الدورة التي قامت بها الرياح والأرض في إخراج الثمر وتقديم العطاء، ليس فيها عسر ولا نصب، ولا يكتنفها جهد ولا مشقة لأنها تسير بقوة الله التي لا تغلب.

وبأمره الذي لا يختلف ولا يتوقف.

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١) .

كذلك قضية البعث، قضية إحياء الموات، قضية جمع الذرات المتناثرة والأشلاء المتباينة، هينة لينة على الله الذي خلقها من عدم هو قادر على إعادتها بعد تفرق. عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق..؟ وما آية ذلك في خلقه..؟

قال: أما مررت بوادي قومك جدباً ثم مررت به يهتز خضراً..؟

قال: نعم.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢ .

قال: فتلك آية الله في خلقه» [١].

وقيل: وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشق عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٢].

إن المنهج الإسلامي ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ابتداء من نشأته وبروزه إلى كل حركة فيه وكل تغيير وكل تعديل كما ينفي الجبرية الآلية التي تصور الكون كأنه آلة، فرغ صانعها منها وأودعها القوانين التي تتحرك بها ثم تتحرك آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين.

وهو تصور حي ينفي عن القلب البلادة، بلادة الآلية والجبرية ويدعها أبداً في يقظة وفي رقابة كلما حدث وفق سنة الله، وكلما تمت حركة وفق ناموس الله، انتفض القلب لقدرة الخالق المبدع.

الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ..

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [٣].

وكل شيء عنده بميزان، ليس للعفوية مكان، ولا للفطرة موضع.

الرابع: بمعنى اللاقحات:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

---

(١) الطبراني في الكبير ١٩/ ٤٧٠ وأحمد ٤/ ١١ .

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤ .

(٣) سورة الرعد: الآية ٨ .

﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١] .

يقول القرطبي: معنى لواقح حوامل لأنها تحمل الماء والتراب، والسحاب والخير والنفع.

وقال الزهري:

وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب أي تقله وتصرفه، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ [٢] . أي حملت الماء وفوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها [٣] .

وقول صاحب اللسان:

اللواقح من الريح التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب فإذا اجتمع في السحاب صار مطراً [٤] .

والعلم الحديث يؤيد أن الرياح تلقح الأشجار والنبات فيصدق عليها أنها «لاقح» بمعنى ملقوحة. ويصدق عليها أيضاً بأنها «لاقح» بمعنى «ملقحة» فكلمة لاقح تصلح لكونها اسم فاعل، ولكونها اسم مفعول، وذلك حاصل علمياً، فهي عندما تمر على أزهار الذكر من الأشجار والنبات تأخذ معها لقاح الذكر فيصدق عليها بأنها «ملقحة» بفتح القاف.

وعندما تمر على أزهار الأنثى من الأشجار وتضع ما بها من اللقاح،

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ١٥ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٢/ ٥٨٢ .

فإنها يصدق عليها بأنها «ملقحة» بكسر القاف.

لذا فإن العلم الحديث يرى أن الأزهار التي تلقح بواسطة الرياح تكون صغيرة وليس لديها أي صفة جاذبة للحشرات، فالغلاف الزهري قليل النمو، والأزهار مكشوفة ومعرضة للرياح.

أما كونها حوامل للسحب فإن العلم الحديث قد أثبت أن الهواء الذي يحيط بنا أو الجو يحتوي على ماء تختفي المياه في الهواء وتتحول إلى غاز يدعى بخاراً مائياً، ويكن للهواء الحار أن يحمل من البخار المائي مقدار أكبر مما يحمله الهواء البارد، وكلما ازدادت حرارة الهواء ازدادت قدرته على حمل البخار المائي[١].

وصدق ربي في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[٢].

الخامس: بمعنى مسيرات السفن في البحار:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣].

---

(١) العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، ٧٢، ٧٣ .

(٢) سورة فاطر: الآية ٩ .

(٣) سورة يونس: الآية ٢٢ .

يقول القرطبي:

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا إلى الرجوع إلى الله تعالى في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافراً لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد الأحد رب كل شيء ومليكه [١].

وقال بعض المفسرين: إن الله تعالى استجاب لدعائه تنفيذاً لوعده لهم.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [٢].

وإذا كان ذلك كذلك فمن هو المضطر ..؟

قال الإمام السدي: الذي لا حول له ولا قوة.

وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عما دون الله تعالى.

وقال سهل بن عبدالله: هو الذي إذا رفع يديه إلى الله تعالى داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها.

وجاء رجل إلى مالك بن دينار: فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر.

قال: إذاً فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه. قال الشاعر:

وأني لأدعو الله والأمر ضيق ... علي فما ينفك أن يتفرجا

---

(١) راجع تفسير القرطبي عند حديثه عن هذه الآية.

(٢) النمل: الآيتان ٦٢، ٦٣ .

ورب أخ سدت عليه وجوهه أصاب لها لما دعا الله مخرجا

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» (١).

ولقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه والسبب في ذلك أن الضرورة إليه وعدم الالتجاء إلى غيره ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ :

«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده» (٢).

السادس: بمعنى رياح النصر:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (٣).

******

(١) أخرجه أبو داود ٥٠٩٠ والطيالسي ٨٦٨ و ٨٦٩ .

(٢) أخرجه أبو داود ١٥٣٦ وابن ماجه ٣٨٦٢ والطيالسي ٢٥١٧ والترمذي ١٩٠٥ وأحمد ٢/٢٥٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٩.

الفصل الرابع

الرعد والبرق والصواعق .. خصائص وأسرار

يكاد يكون اتفاق بين العلماء في عصرنا الراهن، أن البرق عبارة عن وميض الضوء الذي يحدث نتيجة عمليات الشحن الكهربي في الغلاف الجوي.

أما الرعد: فهو عبارة عن الصوت الذي يحدث نتيجة للتمدد الفجائي للهواء بفعل الحرارة الفجائية الناجمة عن حدوث البرق.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١).

وهذه الآية تشير إلى الحقيقة التي اكتشفها العلم حديثاً، والتي تقوم عليها الظواهر الجوية. وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي أن الله تعالى يأمر الريح فتسوق الريح سحاباً ثم يؤلف بين هذه السحب فتعمل على تجاذبها وتقاربها بقوة كهربية شديدة فيتراكم بعضها فوق بعض وتصبح كالجبال فإذا استمرت الرياح تحول هذا البخار إلى برد في أعالي السحابة وتنزل قطرات المياه الكثيرة «الودق» من هذه السحابة

---

(١) سورة النور: الآية ٤٣.

الركامية.

وتربط هذه الآية بين البرد وبين البرق الذي يذهب ضوءه بالأبصار وتضح من هذا الربط دور البرد في توليد الشحنات الكهربائية على طبقات السحاب. فيحدث البرق «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» فيؤدي إلى تمدد الهواء في المنطقة المفرغة، وهذا التمدد الفجائي يحدث صوتاً يدعى الرعد [١].

وقد يحدث التفريغ الكهربي بين السحاب والأرض وهذا يحدث الصواعق المدمرة. وعندها تتعرض الأشجار والمنازل والسفن للتدمير والهدم. ويتفق هذا مع قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [٣].

وفي هاتين الآيتين يتضح الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وذلك نظراً للربط بين الظواهر الناشئة عن الكهربية الجوية مثل البرق والرعد والصواعق.

يقول صاحب الظلال:

---

(١) راجع الكون والإعجاز العلمي للقرآن، مصدر سابق، ص ٢٠٩-٢١٠ بتصرف.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩.

(٣) سورة الرعد: الآيتان ١٢-١٣.

«هو الذي يريكم هذه الظاهرة الكونية. فهي ناشئة من طبيعة الكون التي خلقها هو على هذا النحو الخاص، وجعل لها خصائصها وظواهرها ومنها البرق الذي يريكم إياه وفق ناموسه، فتخافونه، لأنه بذاته يهز الأعصاب، ولأنه يتحول إلى صاعقة، ولأنه قد يكون نذيراً بسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم وتطمعون في الخير من ورائه، فقد يعقبه المطر المدرار المحيي للموات، المجري للأنهار. «وينشئ السحاب الثقال» ومعرفة كيف تتكون السحب وكيف تهطل الأمطار لا تفقد هذه الظاهرة الكونية شيئاً من روعتها، ولا شيئاً من دلالتها، فهي تتكون وفق تركيب كوني خاص لم يصنعه أحد إلا الله، ووفق ناموس معين يحكم هذه التراكيب» (١).

لم يشترك فيها أحد من عبيد الله. ثم الرعد يسبح للخالق المبدع يسبح للقدرة التي أوجدت هذا النظام، وإن كل شيء يسبح بحمده. ولكن لا نفقه تسبيحهم.

ويقول الدكتور جمال الدين الفندي في كتابه المحلق بين العلم والدين: «ورغم أن الإنسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ عشرات السنين فقط. نجد القرآن الكريم يقررها في بساطة من غير ما جلبة أو ضوضاء إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ ويمر المسلمون على هذه الآية مر الكرام. وبدلاً من البحث عما فيها من الحقائق العلمية اكتفوا بتفسير معنى الألفاظ دون أن يدركوا ما فيها من إعجاز علمي

(١) في ظلال القرآن جـ٤ ص ٢٠٥٠-٢٠٥١.

رائع، ثم يتابع حديثه قائلاً:

وهكذا يقرر الجزء الأول من الآية مراحل تكون السحب الركامية حتى تصير كالجبال. وعندئذ تجود دون غيرها من السحب بالبرد. فإذا ضعف التيار هوى البرد على هيئة رخات لا هوادة فيها وكأنما انفجرت السحابة مما يفسر قول الله تعالى: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ »[1].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم أتى بجانب من التفاصيل العلمية التي لم يتوصل إليها الناس إلا في عصر الذرة.

وهناك العديد من الآيات والتي لازلنا نمر عليها مر الكرام. ولكن بمشيئة الله سيأتي الوقت الذي تظهر فيها المعاني العلمية الجليلة في كتاب الله حتى يثبت المسلمون للعالم أجمع أن القرآن معجزة خالدة، وأنه لا يقف إعجازه عند حد معين وسيستمر ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

لقد أثبت العلماء أن من أضرار البرق أنه يصيب الطيارين بالعمي المؤقت وعندما يصاب الطيار بالعمي الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يفقد سيطرته على الطائرة وعندها يشتد الخطر. ونقول هذه بعض آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى.

---

(١) راجع كتاب الكون بين العلم والدين للدكتور الفندي، ص ٤٢-٤٣.

فمتى يعود المسلمون إلى كتاب ربهم – حتى يتعرفوا على ما فيه – عندها تعود البشرية كلها على دين الله وإلى شريعته، ويحل السلام والأمان على ظهر الكرة الأرضية، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، إن الله ينصر من يشاء .

******

الباب الرابع

الغلاف المائي للأرض وحكمة الخالق في جعل مساحته ضعف مساحة اليابس

الفصل الأول

لا حياة لكائن على سطح الأرض إلا بالماء

الماء مصدرٌ للحياة

الغلاف المائي للأرض: هو كل ما يوجد على سطحها من ماء البحار والمحيطات والأنهار، والبحيرات. وهو يغطي حوالي ٧١٪ من سطح كوكب الأرض.

ومساحة الغلاف المائي أكبر من مساحة اليابسة لحكمة إلهية حتى يتم تلطيف مناخ الأرض بتوزيع درجات الحرارة على سطحها توزيعاً عادلاً، ولولا هذا لأصبحت فروق درجات الحرارة على الأرض هائلة لدرجة لا تسمح بقيام الحياة تماماً مثل حالة كوكب القمر الخالي من الماء، والذي تصل درجة حرارته إلى درجة الغليان [١]. وبهذا فإن مقدار الماء على سطح الأرض محسوب ومقدر بحكمة الله تعالى وعنايته بخلقه قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [٢] وقوله أيضاً: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [٣].

ويتجلى وضوح هذه الآية كلما تقدم الإنسان في المعرفة، وكلما اهتدى

---

(١) راجع الكون والإعجاز العلمي، مصدر سابق، ص ١٨٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٨.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢١.

إلى تركيب هذا الكون وتكوينه ومدلول ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ وعرف أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات «الأيدروجين والأكسجين» وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك «الأزوت» الذي في الهواء وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب في ثاني أكسيد الكربون، وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس أيضاً ومثل هذا كثير يوضح خزائن الله التي توصل الإنسان إلى شيء منها وقد كرم الله سبحانه وتعالى مكانة الماء وأهميته في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

وقد سخر الله تعالى الماء لمنفعة الإنسان – كما سخر له كل ما في الكون – وأشار القرآن إلى أنواع التسخير بالنسبة للماء بأنه يأتي فيكون رزقاً. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ (٢).

لقد كان قوم موسى بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها أما الحجر الصلد فقد أنبع الله لهم منه الماء.

وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى – عسلاً وطيراً. ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية في بني إسرائيل أبت عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجهم نبيهم من مصر. أخرجهم

---

(١) سورة هود: الآية ٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٠.

من الذل والهوان وغير ذلك مما لاقوه على يد فرعون – فعل نبيهم ذلك ليورثهم الأرض المقدسة وليرفعهم من المهانة والضعة – وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف ولكنهم أبوا أن يدفعوا الثمن وأن يقدموا الفدية لخالق الأرض والسماء فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف والتشتت في كون الله الفسيح. وكتب عليهم ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (١).

ثانياً: يأتي الماء فيكون بركات.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) والبركات التي يعد بها الله الذين يؤمنون ويتقون في يقين وتأكيد هي ألوان شتى من الفيض الهابط في كل مكان. والبركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى. بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة. وبركات تنمي الأعمار وتزكيها.

ثالثاً: يأتي الماء فيكون نعمة.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٣). الناس عندما يسمعون كلمة «الرزق» في قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٧.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

لَّكُمْ﴾[١] لا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال ولكن مدلول الرزق أوسع من ذلك كثيراً. إن أقل رزق يرزقه الإنسان في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتناسقة والتي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود، ولم يكن له بعد وجود حياة وامتداد. ويكفي ما ذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر حتى يدرك الإنسان كم هو مكفول بعناية الله ورعايته.

رابعاً: يأتي الماء فيكون رحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[٢].

إنه يجمع في هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات، وإرسال الرسل بالبينات عندها ينتصر المؤمنون بإرسال الرسل. كما أنها تحيي الأرض الموات بإنزال المطر وإذا حيت الأرض بالماء. فإن الأموات جميعاً يعودون للحياة يوم البعث وهو جمع له مغزاه لأن الجميع من رحمة الله تعالى، وكلها تتبع سنة الله. وبين نظام الكون الذي أبدعه خالق الأرض والسماء، وبين إرساله الرسل بالإيمان والهدى، ونصر المؤمنين عند ذلك، كلها صلات وثيقة وحلقات مترابطة وكلها من آيات الله تعالى.

قد أشار القرآن الكريم إلى الجانبين المعنوي والمادي للماء، وأن الماء هو

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٤٦.

أساس التطهير والتثبيت وأن الله سبحانه وتعالى خلق من الماء كل شيء حي وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (١).

لقد نزلت هذه الآية في غزوة بدر عندما نزل المسلمون على غير ماء أمام صناديد قريش. والماء في الصحراء مادة الحياة. فضلاً أن يكون أداة من أدوات النصر والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة.

يقول ابن عباس – رضي الله عنه – أصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم. تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء – وأنتم تصلون مجنبين...؟

عندها أمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمين وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حيث أصابه المطر. فساروا إلى القوم ونصرهم الله نصراً مؤزراً.

والماء هو أساس الحياة على سطح الأرض وشرط من أهم شروط استمرارها وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أن الماء هو سبب نشوء الحياة على كوكب الأرض. وقد خلق الله سبحانه وتعالى من الماء البشر

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

والدواب، وكل ما هو كائن حي على الأرض. ويشكل الماء منافع كثيرة تخدم الحياة على الأرض وتيسر للإنسان معيشته فيها، يقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (٢).

وقال أيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٤).

فمن هذا الجنين يتخلق الجنين ذكراً أو أنثى. وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء فمن خلية واحدة من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل تتحد ببويضة المرأة في الرحم ينشأ هذا الخلق المعقد المركب – الإنسان – أعجب الكائنات الحية على الإطلاق ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة لا يدرك البشر سرها ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها لأنها هبة من الله تعالى ومن خصائص علمه ﴿ يَهَبُ لِمَن

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٦.
(٣) سورة النور: الآية ٤٥.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [١] ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة فسبحان الخلاق العليم الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

******

(١) سورة الشورى: الآية: ٤٩.

الفصل الثاني
التوازن والتوافق في عالم الجماد والأحياء
من مظاهر التوازن أن المياه على سطح الأرض مقننة ومقدرة

أشار القرآن الكريم في العديد من آياته البينات على أن نزول الماء من السحاب على سطح الأرض لا يتم بمحض الصدفة. بل إن نزوله يتم بمشيئة الله عز وجل وإرادته بقدر مقدر تقديراً محكماً. فالماء على وجه البسيطة آيات من آيات الله تعالى والتي لا تعد ولا تحصى، يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

يقول صاحب الظلال: الماء نازل من السماء، ونزوله له علاقة بتلك الأفلاك فتكوين الكون على نظامه هذا. هو الذي يسمح بنزوله من السماء، ويسمح كذلك بإسكانه في باطن الأرض.

ونظرية أن المياه الجوفية ناشئة من المياه الآتية من المطر، وأنها تتسرب في باطن الأرض فتحفظ هناك. نظرية حديثة. فقد كان المظنون – إلى وقت قريب – أنه لا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية.

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٨.

ولكن هاهو كتاب الله تعالى، يقرر الحقيقة قبل ألف وثلاثمائة عام.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير وتدبير لا هو كثير فيغرق ويفسد، ولا أقل مما يحتاجه كوكب الأرض فيكون الجدب والهلاك الذي لا يبقي ولا يذر ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ فيغور في طبقات الأرض البعيدة أو يذهب هباء في الصحاري القاحلة. أو بغير هذا من الأسباب. فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته. إنما هو فضل الله على عبيده وخلقه [١]. وهو الرحيم الودود وهو أرحم بعبيده من أنفسهم وصدق ربي في قوله: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [٢].

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٣] كل شيء ... كل صغير وكل كبير، كل ناطق وكل صامت، كل متحرك وكل ساكن، كل معلوم وكل مجهول كل شيء خلقه الله تعالى بقدر.

إن إدراك التناسق بين الضوابط التي تضبط الحياة والتنسيق بين الأحياء والظروف المحيطة بها يعطي فكرة عن تلك الحقيقة الكبيرة التي تشير إليها هذه الآية.

يطيب لنا أن نقدم بعض التوازنات في علاقة الأحياء مع بعضها البعض فوق هذه الأرض المبسوطة. فنرى أن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد. لأنها قليلة البيض قليلة التفريخ – وهو في مقابل هذا طويلة الأعمار –

---

(١) راجع في ظلال القرآن، جـ٤، ص ٢٤٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

(٣) سورة القمر: الآية ٤٩.

ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة التفريخ لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها.

يحدث هذه للحكمة التي قدرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

ومن هنا تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح وصغار الطير.

والذبابة: تبيض ملايين البويضات ولكنها لا تعيش أكثر من أسبوعين. ولو طال عمرها بعض الأعوام لغطى الذباب وجه الكرة الأرضية بنتاجه، ولغدت حياة كثير من الأجناس وأولها الإنسان مستحيلة على وجه الأرض.

ولكن عجلة التوازن التي لا تختل في يد القدرة التي تدبر هذا الكون قد وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر وصدق العليم الخبير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وهذا التنسيق الدقيق – على صفحة الكون بيد القدرة المبدعة قد زود كل حي من هذه الأسلحة بسلاح يتقي به هجمات الأعداء، ويغالب به خطر الإبادة والفناء – وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع فكثرة العدد سلاح، وقوة البطش سلاح، وبينهما ألوان وأنواع.

فالحيّات الصغيرة مزودة بالسم وبسرعة الهروب من أعدائها.

والثعابين الكبيرة زودت بقوة العضل مع قلة السموم.

والخنفساء – وهي قليلة الحيلة – زودتها القدرة الإلهية بمادة كاوية ذات

رائحة كريهة تصبها على كل من يلمسها أو يقترب منها – وبذلك تكون بمنأى عن مخالب الأعداء.

ليس هذا فحسب. ولكن كل حي من الأحياء الصغار والكبار زود بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه – ويتقي صولة الأعداء أو عاديات الفناء – حتى يأتي القدر الذي حدده خالق الكون لها.

وإذا انتقلنا إلى الإنسان عندما يكون بويضة ثم تلقيحها بالحيوان المنوي نراها تلتصق بالرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة، فنرها تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها.

فإذا تم تخليقه، زودته القدرة الإلهية بما يسمى «بالحبل السري» الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه.

وقد راعت القدرة الإلهية في تكوينه ما يحقق الغرض دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه. أو قصر مخل قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء عليه – دون الحاجة إليه – فيكون عاملاً من عوامل الضرر.

والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل عدوى الأمراض.

وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكوين. ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم.

ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل، بل إن تركيب اللبن تتغير مكوناته، وتتركز مواده.

ثم ماذا...؟ ترينا يد القدرة المدبرة الرعاية الكاملة له، وهي مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى. وهذه الإفرازات معقدة التركيب تعقيداً معجزاً وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عاماً في الجسم يبلغ حد الخطورة إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً.

ولقد زودت القدرة الخالقة المبدعة الأسود والنمور والذئاب والضباع، وكل الحيوانات الكاسرة التي تعيش في الفلاة بأنياب قاطعة، وأسنان حادة، وأضراس صلبة ولأرجلها عضلات قوية سلحت بأظافر ومخالب حادة تساعدها في الهجوم على الفريسة وحوت معدتها الأحماض والإنزيمات الهاضمة للحوم والعظام.

و«الأميبا» كائن حي دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات، ولا يُرى بالعين إطلاقاً وإنما يُرى عن طريق المجهر – كتلة هلامية يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات، فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد كالأقدام للسير بها على المكان المرغوب وإذا وجدت غذاء أمسكت به. وتفرز عليه عصارة هاضمة فتتغذى بالمفيد منه أما الباقي فتطرده من جسمها، وهي تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء [١]. وصدق ربي في

(١) راجع كتاب: الله والعلم الحديث للأستاذ عبدالرازق نوفل، ص ٤٦-٤٧.

قولـه: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١).

فهـي إشـارة واحـدة، أو كـلمة واحدة يتم بها كل أمر: الجليل والصغير سـواء، ولـيس هـناك جلـيل ولا صـغير، إنما ذلك تقدير البشر للأشياء وليس هـناك زمـن ولا يعـادل لمـح البصـر، إنمـا هو تشبيه لتقريب الأمر إلى الإنسان. فالـزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة المحدودة. ولا وجـود له في حسـاب الله تعـالى مـن هذه التصورات المحدودة. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢).

لـيس هـناك قريـب ولا بعيد، وليس هناك صعب ولا سهل فتوجه إرادة العليم الخبير لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون.

فسـبحانك لا راد لقضـائك، ولا معطـل لحكمك، وأنت على كل شيء قدير.

---

(١) سورة القمر: الآية ٥٠.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

ومن ذلك أيضاً عدم تعدي الماء العذب أو الماء المالح على الآخر لوجود البرزخ بينهما.

قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾ [1] شاهد الإنسان منذ القدم النهر يصب في البحر، ولاحظ أن ماء النهر يفقد بالتدريج، لونه المميز وطعمه الخاص كلما تعمق في البحر.

ومع تقدم العلم وانطلاقه لاكتشاف أسرار الكون أخذ يبحث عن كيفية اللقاء بين البحر والنهر ودرس عينات من الماء حيث يلتقي النهر بالبحر. ودرس درجات الملوحة والعذوبة بأجهزة دقيقة وقاس درجات الحرارة وحدد مقادير الكثافة.

وبعد مسح لعدد كبير من مناطق اللقاء بين الأنهار والبحار اتضحت للعلماء بعض الأسرار التي كانت محجوبة عن الأنظار واكتشف الباحثون أن المياه تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- مياه الأنهار وهي شديدة العذوبة.

٢- مياه البحار وهي شديدة الملوحة.

٣- مياه في منطقة المصب مزيج من الملوحة والعذوبة، وهي منطقة

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٩-٢١.

فاصلة بين النهر والبحر متحركة بينهما، بحسب مد البحر وجزره وفيضان النهر وجفافه وتزداد الملوحة فيها كلما قربت من البحر وتزداد درجة العذوبة كلما قربت من النهر.

٤- يوجد برزخ مائي يحيط بمنطقة المصب ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة لها حتى ولو كان النهر يصب في البحر من مكان مرتفع في صورة شلال.

٥- عدم اللقاء المباشر بين ماء النهر وماء البحر في منطقة المصب بالرغم من حركة المد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج لأن البرزخ المحيط بمنطقة المصب يفصل بينهما على الدوام [١].

وهذا النظام البديع قد جعله الله تعالى لحفظ الكتل المائية الملتقية من أن يفسد بعضها خصائص البعض الآخر، ليبقى ذلك الاختلاف رحمة للناس وسائر الكائنات.

وإذا كانت العين المجردة لا تستطيع أن ترى هذا الحاجز الذي يحفظ الله تعالى به منطقة المصب، فإن الأقمار الصناعية اليوم قد زودتنا بصورة ماهرة تبين لنا حدود هذه الكتل المائية الثلاث التي تزداد وضوحاً كلما ازداد الفارق في حرارة الماء وما يحمله من مواد.

---

(١) راجع الظواهر البحرية للدكتور برسادا والزنداني.

لقد حارت العقول الكبيرة عدة قرون بعد نزول القرآن الكريم في فهم الدقائق والأسرار. وكيف جاء العلم موضحاً ومبيناً ما توقفت العقول في فهمه وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (١). وقوله أيضاً: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢).

ويقول وحيد الدين خان في تفسير قوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤).

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل – أي لا يذوب – في الآخر. وهناك على سبيل المثال – نهران يسيران في «تشاتغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة أركان في «بورما» ويمكن مشاهدة النهرين مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما، حداً فاصلاً والماء عذب في جانب، وملح في جانب آخر.

هذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث «المد البحري» ولكنهما لا يختلطان.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٣.
(٢) سورة ص: الآية ٨٨.
(٣) سورة الرحمن: الآيتان ١٩-٢٠.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٣.

ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج. وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة «الله أباد» فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما من الآخر [١].

ونقول: إن هذه الظاهرة معروفة من قديم ولكن لم يكتشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين. فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة – يسمى قانون المط السطحي، وهو يفصل بين السائلين، لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر. ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾.

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما أنها لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة. ونستطيع أن نقول: إن المراد من «البرزخ» إنما هو «المط» أو التمدد السطحي الذي يوجد في الماءين والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

وللباحث الدكتور محمد إبراهيم السمرة الأستاذ بكلية العلوم قسم علوم البحار في جامعة قطر دراسة ميدانية في خليج عمان والخليج العربي ذكر فيها نتائج دراسات كيميائية قامت بها سفينة البحوث «مختبر البحار» التابعة لجامعة قطر في الفترة من ١٤٠٤-١٤٠٦هـ ١٩٨٤-١٩٨٦م وتضمن البحث مقارنة واقعية بين الخليجين بالأرقام والحسابات والرسومات والتحليل الكيميائي وبين اختلاف كل منها عن الآخر من الناحية الكيمائية السائدة في كل منهما

(١) راجع الإسلام يتحدى، ص ١٢٤.

ووضح البحث وجود منطقة بين الخليجين تسمى في علوم البحار منطقة المياه المختلطة.

وبينت النتائج أن عمود الماء في هذه المنطقة يتكون من طبقتين من المياه أحداهما سطحية أصلها من خليج عمان والأخرى سفلية أصلها من الخليج العربي.

أما في المناطق البعيدة والتي لا يصل إليها تأثير عملية الاختلاط بين الخليجين فإن عمود الماء يتكون من طبقة واحدة متجانسة وليس من طبقتين.

وأكدت النتائج أنه برغم هذا الاختلاط في المناطق التي بها مياه مختلطة ووجود نوعين من المياه فوق بعضهما البعض، فإن حاجزاً ثابتاً له استقرار الجاذبية وقوتها. يقع بين طبقتي المياه ويمنع مزجهما أو تجانسهما حيث يتكون بذلك مخلوط غير متجانس. وأوضحت النتائج أن هذا الحاجز إما أن يكون في الأعماق من ١٠ إلى ٥٠ متراً إذا كان اختلاط مياه الخليجين راسباً أي أن أحدهما فوق الآخر وإما أن يكون هذا الحاجز على السطح إذا تجاوزت المياه السطحية لكل من الخليجين [١].

ويطيب لنا أن نختم هذا الفصل بحادثة فعلية وقعت لسفينة في عرض المحيط هذه السفينة كانت تمخر عباب البحر المحيط، وفجأة فرغ منها الماء العذب – وكان في السفينة أطفال ورجال ونساء – فصاحوا في طلبه عبر أجهزة اللاسلكي يطلبون من كل سفينة تكون على مقربة منهم أن تمدهم بالماء

(١) راجع من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص ٤٨-٤٩.

العذب حتى لا يهلكوا عطشاً..؟؟

وجاءهم صوت البشير: ألقوا الدلاء حيث أنتم.

وتعجبوا كيف يلقون الدلاء حيث هم، وتحتهم ماء ملح أجاج فأعادوا طلب الاستغاثة مرة ومرات ويأتي البشير مكرراً ألقوا الدلاء حيث أنتم.

وعندما استجابوا لذلك وألقوا الدلاء عادت بالماء عذباً فراتاً سائغاً للشاربين. ولكن كيف تم ذلك..؟

لقد كانت سفينتهم تسير قبالة نهر الأمازون الذي يصب ماؤه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون [١].

لقد صدق ربي في قوله وحكمته: ﴿ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [٢].

وقوله أيضاً: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [٣].

******

(١) راجع المذاهب المعاصرة للدكتور عبدالرحمن عميرة، ص ٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٣.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان ١٩-٢٠.

الفصل الثالث

البحار والمحيطات مستودع البشرية في الطعام والكساء والمعادن

إنذارات وتحذيرات قد تصل إلى درجة الهوس تسري بين جنبات الكرة الأرضية ينادي أصحابها محذرين من تناقص رقعة الأراضي الزراعية لزحف المساكن العمرانية عليها.

وتراهم يحذرون أيضاً من تزايد عدد السكان عاماً بعد عام لغمر مجتمعاتهم بالوقاية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وتراهم يؤكدون أن التربة الزراعية التي كانت تقدم الكثير من الغلال والحبوب قد قاربت من الشيخوخة. ولهذا فإن غلتها تتناقص وبعض الأراضي يصيبها العقم فلا تنتج..؟

ويضيفون إلى ذلك أن الحروب كان لها دورها الكبير في إيجاد التوازن بين قنوات الإنتاج ومتطلبات الاستهلاك.

ولكن الأمم الآن تسعى إلى إقامة السلام وتتواصى فيما بينها بوقف الإعداد للحروب وتدمير أسلحة القتال.

كل هذه الأشياء تجعلهم يتنبأون للعالم بمجاعة مدمرة لا تبقي ولا تذر، وسيكون لها أسوأ العواقب في القضاء على دول كاملة عن طريق الجوع والمسغبة، وهؤلاء ينظرون إلى الحياة من جانب واحد، جانبها المظلم، ونسوا أو تناسوا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق وتكفل بأرزاقهم قال تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (١).

ما من دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة، ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة والتي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء إلا وعند الله علمها ورزقها.

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض. فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً، وأودع هذه المخلوقات القدرة على رزقها من هذا المودع في الأرض المبسوطة والبحار التي لا تحد إما منتجاً بالزرع أو بالصيد أو مصنوعاً أو مركباً إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده حتى أن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً كالبعوض والبراغيث.

والرسول ﷺ يقول: «أيها الناس! اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها» (٢).

ولكن قد يحدث أن الأرض لا تنتج أو يصيب غلتها بعض الآفات الطبيعية وهذا له سبب واحد – هو أن بعض البشر ينحرفون عن أداء رسالتهم التي أناطهم الله بها – وهو دور الخلافة في الأرض.

ويتحول البعض منهم إلى أنصاف آلهة يدمرون ويفسدون ويتطاولون ويخربون عندها ينزل الله سبحانه وتعالى غضبه وعذابه في صورة الجفاف

---

(١) سورة هود: الآية ٦.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢/ ٧٢٥.

وانقطاع المطر مرة، وفي صورة نقص الغلات والثمار أخرى.

وقد يتساءل البعض وما ذنب الكثرة إذا كانت القلة هي التي تقوم بالإفساد...؟

وأتباع إبليس اللعين هم الذين يملأون الأرض ظلماً وضلالاً..؟

هل خصهم الله بالعذاب وحدهم...؟ وأحاطت الفتن بهم بمفردهم..؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (١).

يحدث هذا لأن الفئة المؤمنة لم تأخذ على أيدي الفئة الباغية، ولم يستعملوا ما أمرهم الله به من الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والساكت عن الحق شيطان اخرس، من هنا كان العقاب عاماً وليس خاصاً.

ثم نقول والدليل على أن خيرات الله تعالى لا تنضب ورزقه لعباده مستمر ودائم أن يجعل البحار والمحيطات مستودعات للبشرية باللحم الطري والطعم الشهي وتعتبر هذه الزيوت من أرقى الأنواع لاحتوائها على كميات عالية من فيتامينات أ- د، لحماً طرياً؛ لأنه غني بمادة الفوسفور التي تجلو البصر وتقويه وتساعد الأطفال على أن تنمو أجسادهم نمواً صحيحاً.

لحماً طرياً: لأن بروتينات الأسماك سهلة الهضم إذا قارناها باللحوم الأخرى من الحيوانات البرية.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

ويقول بعض علماء البحار: إن إنتاج الغذاء من البحر قد زاد بنسبة سريعة جداً عن حاجة الاحتياج البشري، وزاد في كثافته عما يقدمه الإنتاج الزراعي من الأرض، وذلك بدءاً من السنوات القليلة الماضية. ولا شك أن هذه الزيادة ستستمر وتتضاعف حتى يتحقق وعد الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (١) وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ (٢).

كم من دابة لا تحصل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به، ولا تعرف كيف توفره لنفسها، ولا كيف تحتفظ به معها، ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعاً. وكذلك يرزق الناس. ويهبهم وسيلة الرزق وأسبابه. فلا مجال للقلق على الرزق.

وكيف يقلقون على الرزق والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣).

ولقد استغل الإنسان من أحياء البحر كل شيء ومنها الثدييات مثل القرش والحوت، وكلاب البحر وسباعه وغير ذلك.

استغل جلودها في كثير من الصناعات الراقية المفيدة.

واستغل زيوتها في العديد من المأكولات والأطعمة.

---

(١) سورة هود: الآية ٦.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٠.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٢٢.

واستغل شحومها في تهيئة الكثير من آلات العمل اليدوية، وشاحنات البر الثقيلة وناقلات الجو الكبيرة، وغواصات البحر العملاقة.

ولقد عرفت الصيدليات العالمية الكثير من الأدوية النادرة والتي استخلصت من حيوانات البحر، من ذلك:

مادة: الأنسولين.

مادة: الأدرنالين.

والدليل على أن خيرات الله لا تنضب ورزقه لعباده مستمر ودائم تكفل الله سبحانه وتعالى بالرزق، وتحديد الأجل. فليس هناك مجال فيهما عن طريق النقص أو الزيادة إلا ما حدده الله تعالى في كتابه.

البحار والثروات الأخرى وحاجة البشرية إليها

البحار تمتلئ مياهها – بفضل الله تعالى بثروات عديدة – فهي أولاً المصدر الرئيسي لأملاح وأكاسيد معدنية كثيرة مثل: أملاح كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) الذي يستخدم في طعامنا ويستعمل في أعمال النسيج ودبغ الجلود، وصناعة الصودا الكاوية والأحماض.

وأملاح كلوريد وكبريتات المغنسيوم التي تمدنا بعنصر المغنسيوم الهام في صناعة الطائرات لخفته وصلابته، ولعمل القنابل المضيئة المستخدمة في كشف المواقع وإشارات الاستغاثة في السفن.

وأملاح البروم واليود الهامة في صناعة الأدوية والصبغات.

وأملاح الفوسفور والنتروجين التي لها أهمية خاصة في مياه البحار بالرغم من تركيزها الضئيل حيث تمتصها الكائنات الدقيقة المعروفة «بالبلانكتون» النباتي الذي يعتبر بدوره مصدر الغذاء لسائر أنواع الحياة البحرية [١].

وهناك ثروات أخرى معدنية تترسب على شواطئ البحار والمحيطات أمام دلتا الأنهار كالتبر والماس واللؤلؤ والمرجان المستخدم في الزينة.

وحقول البترول الممتدة تحت الرصيف القارئ في أماكن بحرية كثيرة.

---

(١) راجع كتاب الكون والإعجاز العلمي للقرآن مصدر سابق، ص ١٩٠-١٩١، وكتاب من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. حسن أبو العينين جـ٢، ص ٢٧٦-٢٧٧ بتصرف.

إن قلّت موارد الأرض أو تناقصت غلاتها قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (١).

وصيد البحر الأسماك بكل أنواعها. وتعتبر الأسماك أساس الثروة المائية وأولى الكائنات المائية بالدراسة والتعمق. ولهذا يقول بعض علماء البحار: إن صنوف السمك التي تعيش في البحار تزيد على ثلاثين ألف نوع فسبحان الله العظيم.

الذي خلق فسوى، وأبدع هذه الكائنات في أعماق المحيطات. ولقد عرف الإنسان من قديم الزمان طريق البحار ليحصل منها على بغيته من الطعام وما زاد عن حاجته قدمه للتجارة والتربح.

ومازالت الكميات التي تصاد في زيادات مستمرة حتى وصلت حصيلة بعض الدول من أنواع الأسماك المختلفة إلى أكثر من ٢٥ مليون طن.

ويقول البروفيسور «جون ألان جولاند» رئيس قسم تقويم الثورة السمكية التابع لمنظمة الأغذية والزراعة العالمية.

إن المحيطات تنتج في كل سنة حوالي ١٣٠ ألف مليون طن من الأسماك والقشريات والرخويات، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (٢).

لحماً طرياً: لأن الأسماك أحد المنابع الرئيسية للبروتينات الغذائية. وفي

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٤.

هـذا العصـر أخـذت بعـض الـدول في تحويل الأنواع الكبيرة من الأسماك إلى دقـيق يصـنع مـنه وجـبات شـهية تقـدم للجـيوش أثناء قيامهم ببعض المعارك الحربية أو أثناء المناورات التي تستمر العديد من الأيام.

ويصـنع مـن النفايات مادة تضاف إلى أعلاف الحيوانات والطيور وذلك لاحتواء الأسماك على نسبة عالية من الدهون والبروتينات والأملاح.

ولقـد قامـت شـركات عملاقـة في كـثير من الدول التي تقع على شاطئ الـبحار والمحـيطات ببـناء العديـد مـن المصانع وذلك لاستخلاص الزيوت من الأسمـاك، ويجـرى الـتفكير حالياً في جميع أنحاء العالم لاستغلال طاقة الأمواج الـبحرية في تولـيد الكهـرباء واستغلال طاقة المد والجزر. فنحمد الله تعالى حمد الشـاكرين القانـتين ونعـوذ بالله من الشياطين المثبطين القائلين في كون الله بغير علم.

******

الباب الخامس

إشارات القرآن إلى الاختراعات الحديثة

الفصل الأول

الإشارات القرآنية إلى غزو الفضاء

القرآن الكريم: خاتمة الكتب السماوية. ودستور البشرية قاطبة، حوى القديم والجديد وما هو في علم الله تعالى من الأحداث والتقلبات حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لقد تكلم القرآن الكريم عن الأمم الغابرة، وصور اعتقاداتهم، وإرسال الرسل إليهم، والصواعق المرسلة على المكذبين الجاحدين. ثم تكلم عن المستقبل القريب والبعيد وما يحدث في كونه تعالى حتى قيام الساعة، وصدق العليم الخبير: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (١).

ثم أخبرنا تعالى بأن الإنسان سيتطلع إلى الطبقات العليا ثم يصل بمشيئة الله إليها. طبقة طبقة. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ (٢).

وهذا الآية تؤكد نفوذ الإنسان خليفة الله في أرضه إلى الطبقات العليا.

وأخبرنا في آية أخرى أنه خلق فوقنا سبعة أطباق. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ (٣).

ولقد تحقق ما قاله الله تعالى بأننا سنصل إلى الأطباق العليا، ففي

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٢) سورة الانشقاق: الآيات ١٦-١٩.

(٣) سورة نوح: الآية ١٥.

٢١ يوليو عام ١٩٦٩م تمت رحلة سفينة الفضاء «أبوللو» الأمريكية والتي حملت الرواد «نيل آرمسترنج» و «وكولينز» إلى القمر ومعهما ثالثهما «الدرين».

ولقد هبط «آرمسترنج» و«الدرين» على سطح القمر لأول مرة في تاريخ البشرية بواسطة المركبة القمرية بعد أداء مهمتها على سطح القمر وعادوا جميعاً سالمين إلى الأرض. ويعد هذا أول طبق من الأطباق التي أشارت إليها الآية الكريمة.

إن هذا الحدث الكبير الذي أشار إليه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً يدعو المسلمين جميعاً وغير المسلمين من البشرية كلها أن تخر ساجدة لله تعالى تنفيذاً لقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ (١).

ما لهم لا يؤمنون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب، وخلق هذا الكون العريض، وهذا الكتاب المعجز يخبرهم عن كل شيء وينبئهم بأن الآخرة خير من الأولى، وأن الله سيفتح أمامهم الآفاق، ويلهمهم باختراق هذا الفضاء العريض، حتى يروا من خلاله عظمة الله وقدرته – فما لهم لا يؤمنون بالإله الحق، ويصدقون بما جاء من حقائق لا يعلمها إلا هو. وأنه سيأتي اليوم الذي يعرضون فيه على ربهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ (٢).

---

(١) سورة الانشقاق: الآيتان ٢٠-٢١.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٨.

ولقد حدد الله تعالى تاريخ العرض بقوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ (١).

ونقول لقد نجح رواد الفضاء الأمريكيون في الوصول إلى الطبق الأول وهو كوكب القمر. وقال «كولينز» رائد «أبوللو» لقد أخذنا في رحلتنا إلى القمر ثروة هذه الأمة المتمثلة في تخطيط ساستها، وذكاء علمائها، وتكريس مهندسيها، ومساندة شعبها.

ثم وضعنا على سطح القمر أجهزة لتحليل العواصف الشمسية، وقياس الزلازل والهزات القمرية، وأجهزة عاكسة لأشعة الليزر، وأجهزة إرسال واستقبال وآلات تصوير تليفزيوني، ثم وضعنا العلم الأمريكي على سطح القمر، ولكنه لن يرفرف لعدم وجود الهواء. ثم عدنا ومعنا ٢٢ كيلو جراماً من الصخور القمرية وأحسب أنها صفقة رابحة (٢).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ظلمة الفضاء الكوني الذي يعلو المجال الجوي للأرض بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥ ﴾ (٣).

وهذه الآية أشارت منذ أربعة عشر قرناً إلى غزو الفضاء وأشارت أيضاً على الظلام الدامس في الفضاء.

ألا يدل ذلك على أن القرآن هو كلام الله. وأن الكون بكل ما فيه خلق

---

(١) سورة الانفطار: الآيات ١-٤.

(٢) راجع كتاب الكون، ص ٢٢٨ مصدر سابق بتصرف.

(٣) سورة الحجر: الآيتان ١٤ – ١٥ .

الله تعالى...؟

وأن الرسول الأمي خاتم الأنبياء والرسل ما كان يستطيع أن يتنبأ بهذه الأشياء دون الوسائل والاختراعات الحديثة التي توصل إليها العلماء في القرن العشرين - إذن ما جاء به محمد ﷺ هو وحي يوحي. وقد جاء القرآن الكريم بما يؤكد ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾ (١).

ولم يقتصر القرآن الكريم في الإشارة إلى غزو الفضاء عند هذا الحد ولكنه أشار إلى الصعوبات التي سيواجهها الإنسان إذا توغل في أعماق السماوات وذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ ﴾ (٢).

فالآية تشير إلى إمكانية النفاذ من الأرض إلى أقطار السماء. ولكن هناك مشاكل جمة وصعاب كثيرة تعترض رواد الفضاء. من ذلك:

١- انعدام الوزن وتغيير الجاذبية.

٢- الإشعاعات الخطيرة المنتشرة في الفضاء أو المتجمعة في أحزمة «ألن» الإشعاعية.

٣- مشاكل الطعام والنوم والإجهاد النفسي التي يتعرض لها رواد

---

(١) سورة النجم: الآيات ٣-٥.

(٢) سورة الرحمن: الآيات ٣٣-٣٥.

الفضاء إذا طالت الرحلة.

أما قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[١].

فالآية تشير إلى العقبات والمصاعب للمركبة الفضائية من ذلك:

١- احتمال اصطدام سفينة الفضاء بنيزك كبير وخاصة في المنطقة التي تتوسط كوكب المريخ وكوكب المشترى.

٢- احتمال حدوث ثقب في السفينة الفضائية بسبب اصطدام الجسيمات الصغيرة «النيزكات المجهرية» لأنها تكون عالية السرعة لدرجة قد تؤدي إلى زيادة طاقة حركتها رغم صغر كتلتها. وتحدث عند تصادمها بالسفينة ثقباً نتيجة صهر جدار السفينة بتأثير حرارة الاصطدام.

٣- انتشار الأشعة الكونية في أرجاء الكون كله، وهذه الأشعة خطيرة على رواد الفضاء لاحتوائها على جسيمات ذرية مشحونة عالية[٢].

وغير ذلك كثير والله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير بكل ذلك ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣].

قلنا سابقاً بأن رواد الفضاء الأمريكيين وصلوا إلى القمر عام ١٩٦٩م،

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٥.

(٢) الكون والإعجاز العلمي، مصدر سابق ٢٢٩-٢٣٠ بتصرف.

(٣) سورة الحديد: الآية ٤.

وقبل هؤلاء استطاع رائد الفضاء الروسي «جاجارين» أن يدور حول الأرض بمركبته عام ١٩٦١م وعندما هبط إلى الأرض قال في وقاحة وكفر: «لقد ذهب صاروخنا للفضاء ولم يتشرف بلقاء إلهكم».

وعندما سألوه ماذا رأيت في السماء..؟

قال: لقد كان الفضاء مظلماً رغم بزوغ الشمس في السماء.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم قبل دوران «جاجارين» بمركبته بأربعة عشر قرناً.

إن ما قاله «جاجارين» وما يردده العلمانيون بأن هذا الكون وجد صدفة، أو من صنع الطبيعة – هذا العبث يرفضه العقل البشري المستنير وترفضه الفطرة السليمة – كما أخذ يرفضه العلم المادي أخيراً.

يقول عالم الأحياء والنبات المستر «رسل تشارلز إرنست» الأستاذ بجامعة «فرانكفورت» بألمانيا – سابقاً:

«لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين على أن الحياة قد نشأت من «البروتوجين» أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية قد باءت بالفشل والخذلان الذريعين.

ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات على طريق المصادفة،

يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها.

إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب فهمها، وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق، ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً ذلك» (١).

إن هؤلاء الذين يجادلون في الله – مخالفين في ذلك منطق الفطرة ومنطق العقل ومنطق هذا الكون الذي لا يحد – هؤلاء الأفراد لا شك تعطلت في داخلهم أجهزة الاستقبال. وطمس إبليس اللعين على أفئدتهم وقلوبهم – ولقد وصفهم الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢).

******

(١) راجع كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» من مقال «الخلايا الحية تؤدي رسالتها» ص ٧٧ ط. ثالثة ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي القاهرة، مع مؤسسة فرانكين للطباعة والنشر.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٩.

الفصل الثاني

إشارات القرآن إلى سفن الفضاء

آيات القرآن الكريم قد أحاطت بالكثير من العلوم الحديثة، ومخترعات العصر. بالأسلوب البديع الذي يليق بكمال علم الله وبإعجازه العلمي الرائع الشامل الذي تناول الحقائق الأساسية دون التعرض للفرعيات. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] وقوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى وسائل المواصلات الحديثة التي لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن كالسيارات والبواخر، والطائرات وسفن الفضاء.

والله سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يتسع تصورهم وإدراكهم ويشعروا أن وراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى واختراعات جديدة وعليهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يقفوا دون استخدامها والانتفاع بها. ولا يقولوا: إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال فلا نستخدم سواها.

إن الإسلام عقيدة متطورة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ويتمخض عنه العلم.

---

(١) سورة النحل: الآية ٨.

كما أن استخدام الفعل «يخلق» له دلالة على أن الله تعالى هو الخالق وإن جرت هذه المخترعات الجديدة على يد خليفته في الأرض. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١).

فالإنسان يولد ولا يعلم شيئاً كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (٢).

ثم يكتسب ما يصل إليه من علم باستعمال ما وهبه الله له وقدره على استخدامه وسخره له وهيأه ليكون في طاعته وإفادته. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (٣).

ولولا هذا التسخير والتيسير ما استطاع الإنسان اختراعاً ولا تصرفاً في الأرض ولعاش فيها كما يعيش الحيوان الأعجم يأكل من نبات الأرض، ويفترس من طيورها وحيواناتها ولا يزيد.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ شامل لكل المخترعات من آلات، وطيارات، ومراكب فضائية وسفن بحرية، وأقمار صناعية، ومصانع وأجهزة إليكترونية. وعلينا ألا نعدد هذه الصناعات وننسبها إلى أنفسنا كما فعل صناع الغرب الذين اعتقدوا أنهم بقدرتهم قامت هذا الاختراعات.

وهذا الصنف من الناس تجد له نظراء في كل عصر ومصر، وهناك في

---

(١) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٧٨.

(٣) سورة الجاثية: الآية ١٣.

الزمن القديم كان قارون الذي قص علينا القرآن قصته عندما قال له قومه ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١).

فماذا كانت نهايته..؟ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢).

فهؤلاء في دول الغرب الذين يدعون ذلك، قادر خالق الأرض والسماء أن يهلكهم بنفس ما اخترعوه وطغوا به إن لم يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه. وبذلك تصبح هذه المخترعات وبالاً على البشرية كلها كما حدث في الحروب العالمية – عندما ألقيت القنبلة الذرية على مدينة «هيروشما» اليابانية، فحولتها إلى بلاقع لا حياة فيها ولا نماء وآيات القرآن الكريم تشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (٣).

والله سبحانه وتعالى يمهل عبيده لعلهم يعودون إلى حماه ويحكمون عقولهم – وهو يمهلهم عن علم – ويملي لهم عن حكمة، ويحكم عليهم وهو

---

(١) سورة القصص الآيتان ٧٧-٧٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٨١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

قادر على أن ينزل عليهم عذابه كما فعل بالأمم السابقة، وقوله تعالى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١).

وإذا كان الأمر كذلك فما هو المطلوب من الأمة الإسلامية وما هي الأسباب التي جعلتهم في ذيل القافلة - وكتاب الله بين أيديهم - الذي صنع منهم سادة وقادة في فترة وجيزة من عمر الزمن.

إن المسلمين قد تركوا التدبر في آيات الله، وحدث ذلك بعد أن تحول الفقه إلى مذاهب وفهموا أن الفقه هو الدين وما عدا ذلك فإنما هو بركة يتبرك بها الناس والحق أن الفقه بفروعه هو سياج الدين وحارس الدين لا كل الدين أما الدين فهو إعجاز القرآن الكريم الذي يقرب مقاصده ومراميه إلى الأذهان، لتوسيع المدارك والتعرف على كون الله، ورفع منزلة النفوس. ويجعل منا أمة لها الكلمة العليا، وقوة ترهب أعداء الله وأعداء دينه. ولن يتم ذلك إلا بالتعرف على التقنية الخارقة التي ذكرها الله تعالى في كتابه. والتأمل في عجائب السماوات والأرض واستخراج الكنوز من خيرات الله تعالى من البحار والمحيطات. ومن باطن الأرض ومن على قمم الجبال. ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

******

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

الباب السادس
حياة الكائنات على ظهر الأرض
في حركة دائمة مستمرة

الفصل الأول

الجمادات ذات روح وحركة

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

أخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً وكرهاً.

تسجد له الملائكة – وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وتسجد له جميع المخلوقات والجمادات من الإنس والجن والدواب والطير. والشمس والقمر. وكل الكواكب والنجوم.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ أتدري أين تذهب هذه الشمس...؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش. ثم تستأمر فيقال لها: ارجعي من حيث جئت (٢).

---

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٣٨ كتاب الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

إنه حشد لا يحد ولا يحصى من مخلوقات الله تعالى مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك وحشد من الأفلاك والأجرام. وحشد من الجبال والأشجار والدواب مما يدب على الأرض أو في السماء .. كل هذه المخلوقات وغيرهم مما يعلمه الله متبتل ساجد لله تعالى الكل يفعل ذلك ما عدا هذا المخلوق الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روحه ترى أفراده متفرقين فالبعض ساجد والبعض جاحد وآخرون حق عليهم العذاب.

هذه المخلوقات جميعاً تسجد لله تعالى وتسبح له، قال تعالى: ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١).

يقول صاحب الظلال: وحينما يتصل قلب العبد بربه يشعر ويحس الاتصال بالوجود كله، وينبض قلب الوجود معه، وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق التي تميز الأنواع والأجناس، وتقيم بينها الحدود والحواجز وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته.

وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل، واحتوائها على الكل عندئذ لا تحس بأن هناك ما هو خارج عن ذاتها، ولا بأنها متميزة عما حولها، فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه (٢).

إن الكون في هذا المشهد متجهٌ كله إلى خالقه مسبحاً بحمده، قائماً بصلاته والإنسان حين يرتفع عن ترابيته ويتجه إلى خالقه يحس بسجود المخلوقات كلها ويسمع ترتيل تسابيحها.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٢) في ظلال القرآن، جـ٤، ص ٢٣٩.

كما كان الرسول ﷺ يسمع تسبيح الحصى تحت قدميه إذا مشى. وكانت الأشجار والجبال تسجد له. عندها قال له أصحابه وأنصاره نحن أولى بالسجود من الشجرة والجمل الشارد..؟

فقال لهم الرسول ﷺ «لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين»[١].

وكذلك كان داود – عليه السلام – إذا رتل التسابيح على مزاميره رجعت الجبال والطير هذه التسابيح فيرددها الكون كله. وصدق ربي في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٢].

هذه المخلوقات مسئولة أمام خالقها. تعرف رحمته التي لا تقف عند حد والتي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٣].

وتعرف عقابه الذي لا يرد ولا يقف عند حد عندما تتجاوز هذه المخلوقات ما أمر به الله تعالى أو نهى عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾[٤].

إذن هذه المخلوقات من حيوانات وجمادات ونباتات وأشجار – زودها الله تعالى بما لم يزود به الإنسان – حرصاً على خليفته في الأرض – أن يصدم عقله أو يتبلد ذهنه، أو يطير فؤاده شعاعاً عندما يتكشف له ما يحدث في هذا الكون العريض. والحادثة التالية تدل دلالة واضحة على قدرة الله التي زود بها هذه المخلوقات ولم يزود بها الإنسان...؟

---

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٣، وذكر طرق هذا الحديث مفصلاً.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٤) سورة الطور: الآيتان ٧-٨.

يقول الدكتور جمال بن فضل الحدشي: في مساء السادس من شهر أيار عام ١٩٧٦ وفي مدينة (فربولي) الإيطالية: ارتفعت فجأة أصوات الحيوانات. فالكلاب تنبح وتجري هنا وهناك.

والقطط تستكن مذعورة.

والفئران تترك جحورها مندفعة في الحواري والأزقة.

والجياد والأبقار هائجة عصبية – تخرج أصواتاً عالية – وتحاول أن تتخلص من قيدها وتهرب إلى حيث لا تدري.

والطيور تطير من أعشاشها وترسل أصواتاً تدل على الفزع وكأنها تطلب الاستغاثة.

لم يصدق سكان المنطقة ما تراه أعينهم وما يصك آذانهم – وكأن أشباحاً غير منظورة حلت بالمنطقة فأزعجت كل المخلوقات – فهي تفر ولا تلوي على شيء وترسل استغاثتها ولا مجيب.

ثم تمضى الساعات بطيئة ثقيلة على أهالي المدينة .. حتى أحسوا بأن الأرض تميد تحت أقدامهم. وما هي إلا سويعات حتى ضرب زلزال مهول ضربته، فتساقط البنيان. وترنحت الأشجار. ونفقت الحيوانات – ثم كانت الطامة الكبرى عندما دفن تحت أنقاض الزلزال أكثر من ألف قتيل من سكان المدينة [١].

ولقد أخذ اليابانيون يرصدون بعد تعرض بلادهم للعديد من الهزات

---

(١) أسماك ترصد الزلازل، للدكتور جمال بن فضل الحدشي، مجلة الإعجاز العلمي العدد ١١ ص ٢٠-٢١ بتصرف كبير.

الأرضية – أحواض سمك الزينة – والتي تفوق إحساسها بحدوث الزلازل آلات الرصد دقة وسبقاً في الوقت.

فلقد شاهد اليابانيون قبل وقوع الزلزال بساعات عدة يصاب هذا النوع من الأسماك بحالات غريبة من اضطراب في الأحواض وذعر ورغبة في الفرار ثم تأخذ بالدوران والاندفاع داخل أحواضها – لعلها تجد منفذاً ينقلها خارج ما تحس به [١].

وقبل هذه المشاهدات – وما سجلته آلات الرصد – أخبر الرسول ﷺ بالحواس التي زود الله سبحانه وتعالى بها المخلوقات من العجماوات حيث قال: «إذا سمعتم أصواتَ الدِّيَكةِ فَسَلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً من الملائكة وإذا سمعتم نَهِيق الحَمِير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً» [٢].

ويقول الدكتور جمال:

«إن هذه التصرفات، بلا شك تنم عن وجود حواس كامنة مركبة في هذه الحيوانات، وهي التي تدفعها إلى استشعار ما قد يعجز البشر عن إدراكه بحواسهم الضعيفة. وسبحانه جل شأنه بما أخبرنا به في كتابه المعجز: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [٣].

أعطى كل هذه الحيوانات والطيور والجبال القدرة على السجود

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) الحديث رواه البخاري في بدء الخلق ١٥، ومسلم في الذكر، والترمذي في الدعوات ٥٦، وأحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٠٦.

(٣) سورة طه: الآية ٥٠.

والتسبيح والصلاة وتنفيذ أوامر الخالق. فالنار أيضاً تحس وتتألم وتسمع وتطيع».

قال الله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [١] أي حنقاً عليهم قال تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ ﴾ [٢] أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على الكفار.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من يقل عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية «فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً».

قيل يا رسول الله وهل لها من عينين...؟

قال: أما سمعتم الله يقول: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [٣].

يقول صاحب الظلال: جهنم مخلوقة حية تكظم غيظها فترتفع أنفاسها في شهيق وزفير. وهي تنطوي على بغض وكره على هؤلاء الذين يكفرون بخالق الإنسان والأرض والسماوات. والنار خليقة من خلق الله. وكل خليقة تعرف ربها وتسبح وتسجد له وتدهش حيث ترى الإنسان يكفر بخالقه ورازقه الخير الوفير. والنعم التي لا تحصى ولا تعد. وكل ما في الكون خاضع ومطيع. بما في ذلك السماوات والأرض ومن فيهن، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ١١-١٢.

(٢) سورة الملك: الآيتان ٧-٨.

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده عن خالد بن دريك عن رجل من أصحاب الرسول ﷺ. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٣٨ .

إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ (١).

أليس هذا هو الإعجاز الذي حواه كتاب الله تعالى – وهو قائم فينا لا تنقضي عجائبه – حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

******

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

الفصل الثاني
إشارة القرآن إلى خلق الإبل

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾

إن العلم الإنساني لا يعرف الكلمة الأخيرة مطلقاً. ونراه يكتشف جديداً مبهراً من خلال تجواله في آيات القرآن الكريم ورصده وتنقيبه في الأرض المبسوطة والجبال المرفوعة، والبحار المسجورة.

حتى استطاع العلماء الذين قال الله عنهم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [١] من خلال هذا القرآن أن يكتشفوا بعض الخصائص عن مادة الكون العجيب، وعرفوا الكثير من خصائص الكوكب الأرضي الصغير.

وتوغل العلم في أغوار النفس البشرية، وكشف الكثير من مغاليقها ومعمياتها. ووضع أمام مجاهره الجسم البشري وساح من خلال أجزائه، وعرف بعضاً من خصائصه، والكثير من أسراره ووظائف أعضائه ووضع مبضعه على علله وأمراضه. ولا يزال هذا الإنسان وعمله في بداية الطريق.

حتى يتحقق وعد الله له بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [٢].

وهذا العلم منحة من الله تعالى لخليفته في الأرض قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

﴿ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١).

ويطيب لنا أن نقدم في هذا الفصل بعض خصائص هذا المخلوق العجيب الذي قال الله تعالى عنه ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾.

ويتساءل المرء: لماذا الإبل بالذات..؟

ولماذا لا يكون الفيل – وهو أضخم جثة وأصلب عضلاً وآية واضحة على قدرة الله تعالى في الخلق والإبداع...؟

ولماذا لا يكون الأسد: وهو أكثر قوة وشراسة – ويسمى بملك الحيوانات..؟

فلماذا أختار الله تعالى الإبل...؟

إن ما توصل إليه العلماء من خصائص اختصه الله سبحانه وتعالى والتي عبر عنها كتاب الله المعجز لتدل دلالة قاطعة على أن خالق الكون يعلم ما لا نعلم، وعلمه لا يحد وكلماته لا تحصى ولا تعد، وصدق ربي في قوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٢).

وقال الله تعالى عن علم هذا الإنسان القاصر المحدود ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣).

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

من هنا يطيب لنا أن نقدم ما توصل إليه العلماء من خصائص الإبل في هذا القرن، والذي سبقهم كتاب الله المعجز إلى ذلك بأربعة عشر قرناً.

خصائص الإبل..

هذا الحيوان العجيب الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ما هي خصائصه..؟

وما الأشياء التي ميزه الله بها عن بقية مخلوقاته من الحيوانات..؟

حتى استحق أن يكون مجالاً للنظر والاعتبار، وموضعاً للتأمل والتفكر في قدرة الله تعالى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

لقد استطاع العلم الحديث أن يكشف عن بعض معجزات الله تعالى التي وهبها لبعض مخلوقاته ، ومنها الإبل.

والتي تدل دلالة قاطعة على أن كتاب الله تعالى الذي أنزله الله تعالى ليكون خاتمة لكتبه. هذا الكتاب ليس معجزاً بألفاظه فقط ولا بكلماته فحسب ولا بتحديه أهل الفصاحة والبلاغة من عباقرة العرب وغيرهم، فأعجزهم وألجمهم ولكنه معجز أيضاً بما حوى من أسرار العلم وخصائص المعرفة، وما في هذا الكون من عجائب لا تحصى ولا تعد، وبما فيه من إحكام وقدرات مقدرة حتى قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (١).

إن العلماء في عالمنا المعاصر قد توصلوا إلى بعض الخصائص التي يمتاز

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

بها الإبل عن بقية المخلوقات. من ذلك:

اختلاف «كريات» الدم الحمراء في الإبل عن بقية كريات الدم الحمراء في جميع المخلوقات إذ أن جميع الحيوانات لها «كريات» دم حمراء مستديرة الشكل أما الإبل فإن كريات الدم عنده «أهليجية» الشكل.

وليست لها نواة – وذلك لحكمة أرادها الخالق جل وعلا.

ومن أجل هذه الخاصية يمكن أن يشرب الإبل مائة لتر من الماء مرة واحدة عندها تنتفخ كريات الدم بقدر حجمها مرتين دون أن تنفجر.

ويقول أحد العلماء: إن جميع خلق الله سبحانه وتعالى من إنسان وحيوان ونبات له قدرة محدودة على شرب الماء فإذا زادت الكمية عن القدر المحدد انفجرت كريات الدم الحمراء وعرضت حياة صاحبها للخطر.

ويقول أيضاً إن بعض الإبل تستطيع أن تستغني عن الماء لمدة تزيد على ستة أشهر في فصل الشتاء.

ويدلل هذا العالم بذلك على التجارب التي قام بها في معمله على الإبل وبقية الحيوانات الأخرى، والتي نفقت بمجرد أن أفرغ في جوفها كمية من الماء تزيد عما تتحمله كريات الدم الحمراء في داخل جسمها.

لعاب الإبل من أقوى المضادات الحيوية في قتل العديد من الميكروبات

يدلل بعض العلماء نتيجة للأبحاث التي أجريت على هذا الحيوان العجيب أن لعابه يعتبر من أقوى المضادات الحيوية التي عرفتها البشرية في قتل الميكروبات. ولهذا نجد أن الأمراض التي تصيب الإبل قليلة جداً، وتكاد تكون خارجية مثل «الجرب» و «الشاف».

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة ناقة صالح – عليه السلام – عندما طلب منه قومه أن يأتيهم بآية قال تعالى: ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١).

لقد قسم صالح – عليه السلام – الماء بين الناقة وقومه.

فقال لها شرب يوم. ولكم شرب يوم...؟

فكانت إذا شربت تشرب كل ما في البئر. ثم تسقيهم لبنها آخر اليوم.

فإذا جاء يومهم كانت البئر خالصة لشربهم ودوابهم. فهل كانت بئر ثمود من الآبار الموبوءة..؟ والتي تنتشر فيها الجراثيم الفتاكة والأوبئة القاتلة،

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٥٤-١٥٨.

وكان ذلك من ابتلاء الله لهم لما عصوا وضلوا؟

كما ابتلي قوم فرعون بالضفادع والدم والجراد..؟

فكانت الناقة إذا شربت تساقط لعابها – بأمر الله تعالى – فقتل ما في البئر من أوبئة وجراثيم ضارة.

فلما قتلوا الناقة تكاثرت الأوبئة في البئر فقضت على أكثرهم.

لقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب الذي أنزله عليهم بالرجفة مرة وبالصيحة أخرى. وبأنهم صاروا كالهشيم الهش الذي يتحطم إلى قطع صغيرة وفي المرة الثالثة جاءتهم الدمدمة التي حولتهم إلى قطع وأشلاء.

وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يمنع أن يكون قتل الناقة التي كانت مدعاة وسبباً لتطهير البئر من العوامل التي جعلت الأوبئة تتكاثر والجراثيم تتضاعف، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

ولهذا كان أمر الله لهم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١).

ومما يؤيد ذلك الحديث الذي رواه الإمام البخاري والإمام مسلم عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ لما نزل أرض الحجر في غزوة تبوك. أمر الجيش ألاّ يشربوا من بئرها ولا يسقوا منها.

فقالوا يا رسول الله قد عجنا منها واستقينا.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٥٦.

فأمرهم – عليه السلام – : أن يطرحوا ذلك العجين، ويهرقوا ذلك الماء.

ونتساءل أيكون الرسول ﷺ أمرهم بذلك لأن البئر موبوءة..؟

وتعشش فيها الجراثيم الفتاكة والأوبئة القاتلة..؟

إننا نميل إلى ذلك ويؤيده اكتشاف العلماء ما في لعاب الإبل مما يسمى بالمطهرات أو المضادات الحيوية، كما يطلق عليها في عالمنا المعاصر.

قدرة الإبل على شرب الماء شديدة الملوحة والمرارة

تمتاز الإبل عن بقية المخلوقات بقدرتها على إطفاء ظمئها بأي نوع من الماء تجده فهي تشرب من مياه المستنقعات شديدة الملوحة والمرارة، وتشرب من مياه البحر والمحيطات. وترجع مقدرة الإبل على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في الكليتين اللتين لهما قدرة عجيبة على إخراج الفائض ضمن الأملاح.

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نستوعب كل خصائص هذا المخلوق العجيب فسبحان الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

العلاج بأبوال الإبل...

لقد أثبتت الأبحاث التي قام بها العلماء أننا نستطيع معالجة الكثير من الأمراض جليلها وقليلها عن طريق ألبان الإبل وأبوالها.

ويؤيد ذلك ما رواه الإمامان البخاري ومسلم بسندهما عن أنس بن

مـالك – رضي الله عنه – أن نفراً من قبيلة عكل قدموا على النبي ﷺ فبايعوه عـلى الإسـلام ثم استوخموا أرض المدينة – وسقمت أجسامهم – فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال عليه السلام:

«ألا تخرجوا مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها...؟

فقالوا: بلى.

فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا» [(١)].

ووقـع في خصـوص التداوي بأبوال الإبل حديث أخرجه ابن المنذر عن ابـن عـباس – رضـي الله عـنهما – رفعـه: «علـيكم بـأبوال الإبل فإنها نافعة للذربة بطونهم» [(٢)]. والذربة – جمع ذرب. والذرب فساد في المعدة.

ولقـد أثبـت كـثير من العلماء المحدثين، أن في أبوال الإبل من الخصائص مـا يمكـن عـن طـريقها – بـإذن الله تعـالى – معالجـة الكـثير مـن الأمـراض المستعصية.

ولقد كانت الأجيال السابقة – قبل ظهور ما يعرف «بالمضادات الحيوية» والمطهرات يغسلون الجروح والقروح بأبوال الإبل فتندمل وتشفى.

وكـانوا إذا أحسـوا بخمـول في الجسـم أو آلام في المعـدة نتيجة لما يسمى بالتلبكات المعوية سارعوا إلى شرب أبوال وألبان الإبل فتعود لهم الصحة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب ٦ باب الدواء بأبوال الإبل ٥٦٨٦، ورواه مسلم في كتاب القسامة ١٦٧١ بسنده عن أنس بن مالك، والترمذي في الطهارة حديث ٧٢ باب في بول الإبل.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٩٣ بسنده عن ابن عباس، وذكره البخاري في باب الدواء بأبوال الإبل.

وكانت النساء يغسلن رؤوسهن بأبوال الإبل فينموا الشعر ويتكاثر، ويشفى من أمراضه التي تعمل على تقصفه وإزالة ما به من قشور وآفات.

كما أن كتب التراث أشارت إلى أن العرب كانوا يخلطون بول البكرة التي لم تلقح بعد بلبن البكرة البكر. وهذه الخلطة تسمى «المقشورة» ويشربونها كعلاج للعديد من الأمراض التي كانت تحل بهم. فيرزقهم الله تعالى الصحة والعافية. وصدق العليم الخبير الذي قال في محكم كتابه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ (١).

ولقد سبقت هذه الآية وأشارت إلى خصائص الإبل قبل أن يتوصل إليها العلماء بأربعة عشر قرناً وهذا دليل على إعجاز القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمتى يعكف المسلمون على كتاب ربهم حتى يستخرجوا هذه الكنوز التي تصلح لكل عصر ومصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إنا لمنتظرون الكثير من العلماء الذي قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (٢).

******

(١) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

الفصل الثالث
أوجه الاتفاق بين الكشوف العلمية وما ورد في القرآن الكريم

١- خلق الإنسان:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (١).

حقاً لقد خلق الله الإنسان خلقاً جمع بين المادة والروح.

ولقد أثبتت بحوث العلماء التي تم إجراؤها على هذا المخلوق إنه مكون من جسم مادي وروح شفافة. جسم مشدود إلى الأرض وروح تتطلع إلى السماء، جسم له دوافعه وشهواته، وروح تسمو به نحو الله، جسم له مطالب الحيوان، وروح لها أشواق الملائكة، ونفس لها طبيعة مزدوجة تحتوي على معنويات الخير والشر، والتقوى والفجور.

وبذلك تطابقت بحوث العلماء مع ما جاء من آيات الله بالنسبة للخلق والتكوين.

٢- كروية الأرض:

قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (٢).

---

(١) سورة ص: الآيتان ٧١-٧٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥.

وهـذه الآية تشير إلى كروية الأرض. لأنه لا يكون تكوير إلا إذا كانت الأرض كروية.

والأرض تدور حول نفسها فنصف الأرض المواجه للشمس يكون نهاراً والنصف الآخر يكون ليلاً ولن يسبق أحدهما الآخر، قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

وبذلك تطابقت بحوث العلماء مع ما جاء من آيات الله تعالى بالنسبة لكروية الأرض وتعاقب الليل والنهار.

٣- الجبال أوتاد لتثبيت الأرض:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ (٢).

وتشبيه الجبال بالأوتاد إعجاز علمي رائع. ولقد أثبت العلماء حديثاً أن الجبال لها جذور تمتد إلى الأغوار العميقة من باطن الأرض يصل إلى ما يقرب من ٧٥ كيلو متراً.

كما ورد في القرآن الكريم آيات تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل في الأرض رواسي ليمنع الأرض من أن تميد وتضطرب، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (٣).

---

(١) سورة يس: الآية ٤٠.

(٢) سورة النبأ: الآيتان ٦ - ٧ .

(٣) سورة لقمان: الآية ١٠ .

وأشار القرآن الكريم إلى تغذية الأنهار بالماء العذب عن طريق الثلوج المتراكمة على قمم الجبال، بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) .

وجاء العلم ليقرر هذه الحقيقة بعد أربعة عشر قرناً أن ذوبان الثلوج من على قمم الجبال لضغط الطبقات العليا من الثلج على السفلى منه ولن تنفد هذه الثلوج من على قمم الجبال لأنها كما تسيل باستمرار تتجدد نتيجة تكثف بخار الماء الموجود دائماً في الجو المحيط بهذه القمم.

وبذلك يتطابق العلم مع ما جاء من آيات القرآن المعجز الذي جاء من لدن الحكيم الخبير. بكل ذرة من ذرات كونه وصدق ربي في قوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) .

٤- الغلاف المائي للأرض:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٣) .

فلا حياة لأي كائن إلا بالماء، وهذا الماء الذي على ظهر الأرض كمياته محسوبة ومقدرة، فهي لا تزيد عما تحتاجه الكائنات على كوكب الأرض فيعم الطوفان ولا ينقص عما تحتاجه فيكون الجفاف والجدب الذي يقضي على كل شيء. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا

---

(١) سورة المرسلات الآية: ٢٧ .

(٢) سورة الملك الآية: ١٤ .

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٣٠.

عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١) .

وجاء العلم وقال: الغلاف المائي: ممثلاً في كل ما يوجد على سطحها من ماء البحار والمحيطات والأنهار وما يتخلل فجوات الأرض وشقوقها، وهو يغطي ما يقرب من ٧١% من سطح كوكب الأرض، ومساحة الغلاف المائي أكبر من مساحة اليابسة لحكمة إلهية حتى يتم تلطيف مناخ الأرض بتوزيع درجات الحرارة على سطحها توزيعاً عادلاً، ولولا ذلك لتعذرت الحياة على كوكب الأرض.

٥- الحاجز بين الماء العذب والماء المالح:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢) .

جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً. فهما يجريان ويلتقيان ولا يختلطان ولا يمتزجان إنما يكون بينهما حاجز من طبيعتهما التي فطرها الله، ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد. وإنما يتم ذلك بإرادة الخالق الذي أنشأ هذا الكون لغاية تحقق قوانينه في دقة وإحكام.

ثم جاء العلم، وأثبتت بحوث العلماء وكشوفاتهم في المناطق التي بها مياه مختلطة ووجود نوعين من الماء فوق بعضهما البعض، فإن حاجزاً ثابتاً له استقرار الجاذبية وقوتها، يقع بين طبقتي المياه ويمنع مزجهما أو تجانسهما حيث

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٨.

(٢) سورة الفرقان الآية: ٥٣ .

يتكون بذلك مخلوق غير متجانس.

وأوضحت أن هذا الحاجز إما أن يكون في الأعماق من ١٠ إلى ٥٠ متراً إذا كان اختلاط مياه الخليجين رأسياً أي أن أحدهما فوق الآخر، وإما أن يكون هذا الحاجز على السطح إذا تجاوزت المياه السطحية لكل من الخليجيين (١).

وصدق العليم الخبير في قوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ ﴾ (٢).

وبذلك يكون هناك تطابق بين ما توصل إليه العلم، وما ذكره كتاب الله تعالى من أربعة عشر قرناً.

ونقول: ما بذله العلماء من بحوث وتنقيب وسياحة هو مجهود بشري مستمد من الله تعالى. والعالم الذي لا يعتقد في ذلك ينحرف عن مصدر العلم، ويتخبط في ظلام الإلحاد والضلال، وخصوصاً بعد أن ينسى أو يتجاهل أن ما عنده من علم هو بالمقدار الذي يسمح به خالق الأرض والسماوات، الذي يقول في محكم كتابه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (٣).

---

(١) راجع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، ص٤٩-٥٠ بتصرف.

(٢) سورة الرحمن الآيات: ١٩-٢٢ .

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

٦- ارتياد الفضاء:

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١).

والمقصود بالآفاق هو الفضاء الكوني.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢).

وهذه الآية تشير إلى أن الإنسان خليفة الله في الأرض سيتحقق له ارتياد الفضاء في يوم ما.

وهذا ما حدث: حيث تم إرسال العديد من سفن الفضاء إلى طبقات الجو العليا بدءاً من عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٩م.

ثم في هذا التاريخ رست سفينة الفضاء «أبوللو» على سطح القمر، وتحقق ما قاله الله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ وإذا كان هذا هو الطبق الأول فلا زالت الطباق الباقية والتي يحاول الإنسان جاهداً أن يصل إلى العديد منها حتى يتحقق قول الله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣).

إنه أمر الله تعالى بالنفوذ إلى الأطباق الباقية. ويتساءل المرء ما هو

---

(١) سورة فصلت الآية: ٥٣ .

(٢) سورة الانشقاق الآيتان: ١٨-١٩ .

(٣) سورة الرحمن الآية: ٣٣ .

السلطان ..؟ أهو أمر الله تعالى لخليفته في الأرض حتى يتعرف على كون الله تعالى الذي لا يحد ولا يحصى.

أهو العلم الذي يهبه الله تعالى لخلقه، حتى يحققوا ما أمر الله تعالى به.

إن العلم الذي وهبه الله لرسوله ﷺ خاتم أنبيائه ورسله هو الذي عرج به إلى السماوات العلا حيث قال: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ ﴾ (١).

فهل يتحقق ما أمر الله تعالى به بقوله: ﴿ فَٱنفُذُواْ ﴾ لقد تحقق النفوذ إلى الطبق الأول والبقية في الطريق عندما يأتي أمر الله، وبذلك تطابق ما حققه العلم مع ما جاء به كتاب الله منذ أربعة عشر قرناً.

هذا وبالله التوفيق والهداية.

******

(١) سورة النجم الآيات: ٧-١٥ .

الخاتمة

نختم هذا البحث بما قدمناه، فالمقدمة والخاتمة تتفقان في أنهما تعريف ببحث تم إنجازه وقد نخص المقدمة – بعد التعريف بالبحث ببيان الأساس الذي يقوم عليه البحث، ونخص الخاتمة بما يرى الباحث من لفت النظر إليه فيما يتصل ببحثه من قضايا وأسس مع ملاحظة ألا يقحم الباحث شيئاً لما يتناوله تفصيلاً في بحثه، فيبدو كمن نسي شيئاً ثم تذكره.

وقد أشرنا إلى أن كل تفسير للقرآن الكريم يجب أن يكون علمياً، أي: قائم على أساس صحيح من العقل والنقل.

أما مصطلح التفسير العلمي للقرآن فهو نوع من أنواع التفاسير يتناول الموضوعات التي تتصل بالعلوم/ التجريبية الطبيعية والكونية والحيوية، والتي وردت إشارات لها في القرآن كما يتبين من موضوع البحث وقد بدأنا البحث بمدخل تناولنا فيه مصادر التفسير في عصر النبوة، والتفسير العلمي: نشأته وتطوره.

وفي **الباب الأول:** بينا كيف أن كتاب الله منهج متكامل لتنظيم الحياة والكون وتطويرها وكيف أن هذا الكتاب المعجز شامل للعلم بحقيقة أن الإنسان خليفة الله في الأرض استخلفه فيها وأمره بكل ما يمكنه من الانتفاع بما فيها وعلمه ما لم يكن يعلم، وأمره بالمنهج الذي ينظم علاقته بنفسه وغيره من البشر والكائنات، وينظم علاقته بعالمه الطبيعي من أجرام وغير ذلك، وبينا

أن كتاب الله شامل للعدل المطلق بين جميع المخلوقات وبين البشر جميعاً في السلم والحرب.

وفي **الباب الثاني**: تناولنا نشأة الكون ونظرية الانفجار الكبير والاكتشافات العلمية التي تتصل بذلك وما ورد في القرآن تفسيراً لذلك.

وتحدثنا عن الجبال ودورها في إقامة التوازن بين أطراف الأرض، وما تضمنه القرآن الكريم من إشارات معجزة تفسر ذلك وتكشف عنه في عصر لم يكن فيه الإنسان قادراً على إدراك هذه الأسرار العلمية.

وانتقلنا إلى التعرف على التزاوج بين الأحياء جميعها، والتوازن الطبيعي في منهج القرآن الكريم والعلم الحديث، ويبين لنا ما تضمنه من أحاديث وإشارات.

ودرسنا بعد ذلك نظرية انشقاق القمر من الأرض في القرآن الكريم والعلم الحديث وما علمه الإنسان عن سطح القمر وجسمه الضخم، ودوران القمر حول الأرض، وخسوف القمر وأثر الظل في عملية المد في البحار والمحيطات.

وتناولنا في **الباب الثالث**: الغلاف الجوي خصائصه وأثره في استمرار الحياة، وكذلك الرياح والرعد والبرق والصواعق وما يتصل بها من أسرار كشف عنها القرآن الكريم في عصر كانت البشرية في طفولتها من حيث التقدم العلمي التجريبي.

وفي **الباب الرابع**: درسنا الغلاف المائي للأرض، وحكمة الخالق جعل

مساحته ضعف مساحة اليابس، وضرورة الماء للحياة، والتوازن العجيب في عالم الجماد والأحياء، وكيف أن البحار والمحيطات هي مستودع البشرية في الطعام والكساء والمعادن.

وفي **الباب الخامس**: تناولنا إشارات القرآن الكريم إلى الاختراعات والإنجازات الحديثة من غزو الفضاء إلى سفن الفضاء.

وفي **الباب السادس**: درسنا حياة الكائنات على ظهر الأرض، وكيف أنها في حركة دائمة مستمرة وما في الجمادات من روح وحركة خفية أشار إليها القرآن ثم كشف العلم عن وجودها.

وإذا كان القرآن قد كشف أسراراً عن ذلك الكون الطبيعي من أرض وبحار وجبال وأجرام سماوية، فإنه كشف أيضاً عن بديع خلق الله في كل مخلوقاته بدءاً من الذر الصغير إلى الجمال وغيرها من المخلوقات الكبيرة.

وفي نهاية البحث تناولنا أوجه الاتفاق بين الكشوف العلمية، وما ورد في القرآن الكريم من حديث أو إشارات إليها.

وإن الكشف عن إعجاز القرآن الكريم يهدف في المقام الأول إلى بيان قدرة الله وأنه هو الخالق العليم الحكيم، وإثبات وجود الله، فهذا هو المحصلة الكبرى من أي تفسير أو تأمل في القرآن الكريم.

وختاماً نؤكد أن كتاب الله لا يمكن عقلاً ونقلاً، إلا أن يكون منزلاً من الخالق «تعالى الله عما يصفون» وأنه نزل من لدن الله ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ١٠٢،

الرعد ١٦، الزمر ٦٢، غافر ٦٢] «هو الخالق البارئ المصور» [الحشر ٢٤] «وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق» [الأنعام: ٧٣].

وإن هذا الكتاب «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» فما ورد فيه حق لا مراء فيه، وحقائق القرآن هي الحقائق التي نزل بها الروح الأمين على خاتم الأنبياء والمرسلين من أربعة عشر قرناً عندما كان العالم يفسر الظواهر الكونية تفسيراً باطلاً يتصل بالخرافات والجهالات الموروثة.

هذا الإعجاز العلمي للقرآن الكرمي ينجلي كل يوم وساعة في كل إنجاز بشري جديد يبهر الناس فينظر بعض الذين علمهم الله وأرشدهم وكشف عنهم العماية إلى القرآن الكريم فيجدون إشارة قاطعة في القرآن إلى هذه الكشوف الجديدة عندنا.

ولكن حقائق العلم حقائق متغيرة ونسبية، وحقائق القرآن الكريم ثابتة قاطعة، ولهذا فإن على الباحث في الإعجاز العلمي ألا يجري وراء الكشوف العلمية جرياً بنسبة أن يتكلم في القرآن الكريم عن بينة، فالعجلة أساس الخطأ، والتروي يمكّننا من الوصول إلى الصواب، ولهذا، فإنني أطلب أن يكون الأساس في الباحث العلمي المتصل بالإعجاز القرآن هو الصبر والأناة، والحذر من الوقوع في المحظور من التكلم في القرآن بغير علم، ومن الضروري لذلك أن يكون من بيننا العالم الذي يجمع بين المعارف العلمية والمعرفة بكتاب الله واجتهادات المفسرين السابقين، والمعرفة بلغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم، وأن تقوم الجمعيات والمؤتمرات على أساس من الجمع بين علماء

ثقات مشهود لهم بالعدل والضبط والمعرفة التي تجمع بين المعرفة بالقرآن والمعرفة بحقائق العلم وأن يكون الجمع بين ما ورد في القرآن الكريم وما وصل إليه العلماء المحدثون قائماً على أساس من المنهج العلمي الذي يتفق ورأي الأئمة من ناحية، والمنطق العلمي الحديث من ناحية أخرى.

وبعد فإننا نسأل الله – سبحانه وتعالى – أن يلهمنا الصواب، وأن يهدينا إلى علم صحيح، وقول صحيح، وأن يجنبنا الزلل ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤] .

******

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.
- الأحاديث الصحيحة للألباني، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي قدم له وضبط نصه كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- إحياء علوم الدين للغزالي، دار الندوة الجديدة، بيروت – لبنان.
- الأعلام للزركلي، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م، دار العلم للملايين، بيروت.
- الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة.
- إنه الحق، هيئة الإعجاز العلمي، مكة المكرمة.
- الأيثرلوجي، التصرف الغريزي للحيوانات والطيور، تأليف إيجور، مراجعة جلال عبدالفتاح، طبعة الألف، كتاب الهيئة العامة، مصر.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
- تأصيل الإعجاز العلمي لعبدالمجيد الزنداني وآخرين، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن سعدي، طبع مركز بن صالح الثقافي، المملكة العربية السعودية.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري، حققه وعلق حواشيه محمود شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- الجواهر في تفسير القرآن الكريم لطنطاوي جوهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- جواهر القرآن للغزالي، مطبعة كردستان، سنة ١٢٢٩هـ.
- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاند هلوي، حققه وعلق عليه نايف العباس ومحمد علي دولة، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، دار القلم، دمشق.
- حيوان له تاريخ في خدمة العلماء لأحمد بهجت، طبعة المختار الإسلامي، مصر.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، مطبعة دار الفكر، بيروت.

- رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق.
- سنن ابن ماجة، دار الدعوة ١٤٠١هـ، تركيا.
- سنن الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
- صحيح البخاري، دار الدعوة ١٤٠١هـ، تركيا.
- صحيح مسلم، دار الدعوة، تركيا ١٤٠١هـ.
- صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، اعتنى بها وحققها وخرّجها راشد عبدالمنعم الرجال، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، مكتبة السنة، القاهرة.
- الصيام معجزة علمية، د. عبدالجواد الصاوي، هيئة الإعجاز العلمي، مكة المكرمة.
- عجائب المخلوقات بين منهج القرآن والعلم الحديث، د. عبدالرحمن عميرة، دار المنار، القاهرة.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ، دار الشروق، بيروت.
- قاموس القرآن الكريم، النبات، في الطب، في قضايا الإيمان والنبوة، والكون والأخلاق، مؤسسة التقدم العلمي، الكويت.
- قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور أنور عبدالعليم، المكتبة الثقافية، مصر.
- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور حسب الله، دار الفكر

العربي، مصر.

- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مباحث في علوم القرآن لمناع خليل القطان، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت – لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن القاسم، مطبعة إدارة المساحة العسكرية ١٤٠٤هـ، القاهرة.
- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- مذاهب التفسير الإسلامي للمستشرق جولد تسهير، تعريب، د. عبدالحليم النجار، دار اقرأ، القاهرة.
- المذاهب المعاصرة، د. عبدالرحمن عميرة، مطبعة الاستقامة، سلطنة عمان.
- المسند للإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق.
- مع الله في السماء، أحمد زكي، دار القلم، بيروت.
- المعجزة القرآنية للكتاب والسنة، بحوث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام آباد، باكستان ١٤٠٨هـ.
- معجم طبقات الحفاظ والمفسرين، دراسة عن الإمام السيوطي ومؤلفاته لعبدالعزيز عزالدين السيروان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، عالم الكتب – بيروت.
- المعجم الكبير للطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبدالمجيد السلفي،

مكتبة التوعية الإسلامية، القاهرة.

- معجم المؤلفين لعمرو رضا كحَّالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت.
- المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، مصر ١٤٢٤هـ.
- مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق حواشيه أحمد حسن فرحات، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الدعوة، الكويت.
- مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، دار القرآن الكريم، الكويت.
- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، د. حسن أبو العينين، مكتبة العبيكان، الرياض.
- من أوجه الإعجاز في اللبن ومكوناته للدكتور علي أحمد الشحات وآخرين، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.
- مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، الطبعة الثالثة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- هوايت النجوم، ترجمة إسماعيل حقي، دار المعارف، القاهرة.

******

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
المدخل	٩
أولاً: مصادر التفسير في عصر النبوة	١٤
ثانياً: أنواع التفسير	٢٠
التفسير العلمي .. نشأته وتطوره	٢٦

الباب الأول

كتاب الله منهج متكامل لتنظيم وتطوير الحياة والكون ٣٧

الفصل الأول:

كتاب الله شامل للعلم بحقيقة أن الإنسان خليفة الله في الأرض ٣٩

تكريم الله تعالى لخليفته ٥٠

تسخير الكون بكل ما فيه للإنسان ٥٢

الفصل الثاني:

كتاب الله شامل للعدل المطلق بين جميع المخلوقات ٥٨

العدل المطلق بين البشر جميعاً ٦٣

العدل المطلق في المعارك والحروب ٦٥

الفصل الثالث:

كتاب الله شامل لكل جوانب الحياة ليتم التنسيق بين الكون وشؤون الحياة.. ٧٠

كوكب الأرض وإحاطته بالعناية الإلهية ٧٤

الباب الثاني

نشأة الكون ونظرية الانفجار الكبير بين القدرة والإبداع والاكتشافات العلمية ٨١

الفصل الأول:

نشأة الكون والانفجار الكبير..... ٨٣

نشأة الكون ٨٤

نشأة الكون ونظرية الانفجار الكبير ٨٧

الفصل الثاني:

الجبال ودورها الكبير في إقامة التوازن بين أطراف الأرض ٩٧

أنواع الجبال..... ١٠٦

الجبال في منهج القرآن الكريم ١١٤

الفصل الثالث:

التزاوج والتوازن الطبيعي في منهج القرآن والعلم الحديث ١٢٥

الفصل الرابع:

انشقاق القمر من الأرض بين القرآن الكريم والعلم الحديث..... ١٤٣

سطح القمر واكتشاف العلماء لجسمه الضخم..... ١٤٥

دوران القمر حول الأرض ١٤٦
خسوف القمر وأثر الظل في عملية المد في البحار والمحيطات ١٤٨

الباب الثالث

الغلاف الجوي أو طبقة الهواء التي تحيط بالأرض ١٥١

الفصل الأول: الغلاف الجوي .. خصائصه وأثره في استمرار الحياة ١٥٣
الفصل الثاني: أثر الغلاف الجوي في استمرار الحياة ١٥٨
الفصل الثالث: الرياح في منهج القرآن..... ١٦٢
الفصل الرابع: الرعد والبرق والصواعق .. خصائص وأسرار ١٧٣

الباب الرابع

الغلاف المائي للأرض وحكمة الخالق في جعل مساحته ضعف مساحة اليابس ١٧٩

الفصل الأول:
لا حياة لكائن على سطح الأرض إلا بالماء ١٨١
الفصل الثاني:
التوازن والتوافق في عالم الجماد والأحياء ١٨٨
الفصل الثالث:
البحار والمحيطات مستودع البشرية في الطعام والكساء والمعادن ٢٠٠
البحار والثروات الأخرى وحاجة البشرية إليها ٢٠٥

الباب الخامس

إشارات القرآن إلى الاختراعات الحديثة ٢٠٩
الفصل الأول : الإشارات القرآنية إلى غزو الفضاء ٢١١
الفصل الثاني: إشارات القرآن إلى سفن الفضاء ٢١٨

الباب السادس

حياة الكائنات على ظهر الأرض في حركة دائمة مستمرة ... ٢٢٣
الفصل الأول:
الجمادات ذات روح وحركة ٢٢٥
الفصل الثاني:
إشارة القرآن إلى خلق الإبل ٢٣٢
لعاب الإبل من أقوى المضادات الحيوية في قتل العديد من الميكروبات..... ٢٣٦
الفصل الثالث:
أوجه الاتفاق بين الكشوف العلمية وما ورد في القرآن الكريم ٢٤١
خاتمة ٢٤٩
ثبت المصادر والمراجع ٢٥٥
الفهرس ٢٦١

******